مشكلة إيمانية

قصص خيال علمي

عبد الحكيم عامر الطويل



مشكلة إيمانية

مشكلة إيمانية

12 قصة خيال عِلمي

مهندس نووي عبدالحكيم عامر الطويل

الناشر
مجلس الثقافة العام

اســـم الكتاب مشكلة إيمانية

اســم المؤلف مهندس نووي عبدالحكيم عامر الطويل

سنة النشر 2006 م

رقم الإيداع 7228 / 2006 م

الترقيم الدولي 0 - 142 - 38 - 9959

تصميم الغلاف علي العباني

لوحة الغلاف عبد الحكيم الطويل (توليف)

التنفيذ الفني عاطف الأطرش - نجلاء المنقوش

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 -- بريد مصور 002185473161

فرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فرع بنغازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005 @yahoo.ca

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

تنفيذ الطباعة

القاهرة ت 0020123140315

المحتـــويـــات

حسن يوسف اللموشي

قبل كل شيء

... لم أكتب قصصاً غير قصص الخيال العِلْمِي ... وللكبار! هذه كلمة أجد نفسي دائماً مدفوعاً لتأكيدها لأنه يؤسفني أن الكثير من مثقفينا لازالوا يعتقدون أن أدب الخيال العلمي ما هو إلا ملهاة للأطفال، غير مدركين أن الأفلام التي ترصد لها أعلى الميزانيات اليوم وتنفذ لها أقوى المؤثرات والتي تحصد أعلى الإيرادات هي أفلام الخيال العلمي، حتى أن غالبيتها لم يكتف بالإصدارات الأصلية فتبعتها سلسلة من الأفلام، كمجرد مثال: سلسلة أفلام "بلانت أوف ذي آيبس (PLANET OF THE APES كوكب القرود) وسلسلة أفلام "بات مان" (BATMAN الوطواط) وملحمة "ستار ترك" (STAR TREK الطريق الشاق إلى النجوم) التي لم تتوقف حتى تاريخ هذه الأسطر إصداراتها سواء كأفلام أو سلاسل تلفزية، كما أن ملحمة "ستار ورز" (STAR WARS أي حروب نجم وليس حرب النجوم كما اشتهرت خطأ) صدر عنها حتى تاريخ هذه الأسطر 6 أجزاء، وسلسلة أفلام "ماتريكس" (MATRIX المصفوفة) هزت تاريخ الخيالة بأجزاءها الثلاث، وكذلك سلسلة أفلام آلين (ALIEN الغريب) التي صدر عنها حتى تاريخ هذه الأسطر 4 أجزاء، وسلسلة "تيرميناتر" (TERMINATOR أي الفاني) التي صدر عنها حتى تاريخ هذه الأسطر 3 أجزاء.

كما أن تجارة وصناعة مجسمات وصور وملابس وملصقات وأسماء وعلامات شخصيات وعناصر هذه الأفلام - إضافة إلى نسختها اللعبة الحاسوبية - تعد من أكثر التجارات ازدهاراً على مستوى العالم، ليس غريباً إذاً أن تُكَرِّس قناة فضائية خاصة واحدة على الأقل برامجها طوال 24 ساعة فقط لثقافة الخيال العلمي: إنها "ساينس فيكشن تشانل" (SCI-FI CHANNEL قناة الخيال العلمي)، وكأن هذا البث المكلف لم يكفها صارت تصدر مجلة دسمة شهرية باسمها مخصصة فقط للتعريف ببرامجها ولنشر عشرات الإعلانات لتذكارات أفلام الخيال العلمي بجميع أشكالها.

ومع كل هذا الزخم، وباستثناء بعض الكتاب العرب شبه المنسيين مازال الكثير من مثقفينا يعتبر فن الخيال العلمي ما هو إلا طرفة موجهة للأطفال لا أكثر لمساعدتهم في متابعة دروسهم! لهذا لا أظنني أبالغ إذا قلت إن هذه المجموعة التي بين يديك الآن هي أول مجموعة قصص خيال علمي ليبية التأليف والنص والوجدان والهم والمكان والزمان! بل وربما تكون أول مجموعة مغاربية كذلك!

أما سر اهتمامي بهذا اللون من الأدب لوحده دون ألوان الأدب الأخرى فلربما لكوني تشبعت بهذه القصص منذ صغري، التشبع الذي كان السبب الرئيس في اختياري الدراسة العلمية في مرحلتي الثانوية والجامعة، والتي انتهت بعملي حتى تاريخ هذه السطور في مركز البحوث النووية الليبي.

إلا أن هذا لا يعني مجرد رد فعل عاطفي لخلفيتي العلمية بقدر ما هي قناعة ترسخت مع الزمن، فبقصصي الخيالية العلمية أنتهج أسلوباً حديثاً في وخز قضايانا المعاصرة، فلا أظن أن الوقت مازال يسمح بانتهاج أساليب القرن العشرين في الوقت الذي يحاصرنا فيه من كل جانب الحاسوب وملحقاته والهاتف النقال بملحقاته وصحون الالتقاط الفضائي الرقمي وأجهزة صرف النقد المصرفية التلقائية، وعالم شبكة المعلومات الدولية بكل تنويعاته الموضوعية والإلكترونية، بل إنني أجد أن الكثير من شعائرنا الإسلامية تسللت إليها التقنية: الآذان الصوتي الكهربي والسجادة والهاتف النقال اللذان يشيران تلقائياً إلى القبلة وساعة الحائط التي تؤذن تلقائياً في أوقات الآذان!

إذاً بواسطة الخيال العِلْمِي أكون قد قدمت رأيي الشخصي بأسلوب العصر ذاته في الهموم البيئية والاجتماعية والفلسفية والدينية المعاصرة المتأثرة بتقنيته المعاصرة، فتجدني مثلاً في فقرة أقترح حلاً مستقبلياً لمشكلة إنسانية قديمة مزمنة (الخيانة؟)، وفي فقرة أخرى أتصوَّر مشكلة نفسية اجتماعية ستواجهها البشرية نتيجة تطور عِلْمي لا مفر منه (الاستنساخ)، في جملة أخرى أعطي تفسيري الشخصي لفكرة دينية ما، وفي صفحة أعطي تفسيري الشخصي لظاهرة حاضرة مازالت غير مفهومة، لكنني في كل قصصي تقريباً أعمل على فضح السلوكيات البشرية المُشِينة التي تمارس أكثر ما تُمارس ضد البشر الطيِّبين (الحروب، الكراهية، الجشع، الأنانية) أو الكائنات الحية البريئة أو بيئتنا ذاتها.

مع ذلك حرصت على ألا تكون قصصي مجرد نسخة لقصص الخيال العلمي الأوروبية أو الأمريكية، أولاً لأنني لست أوروبياً ولا أمريكياً وإنما عربي المولد واللغة والثقافة ومسلم الديانة، وثانياً لقناعتي بأن المستقبل سوف لن يكون للأوروبيين أو الأمريكيين وحدهم، لا شك في أنه سيتبقى فيه مكان لعدد كبير من العرب والمسلمين! لذا أدركت أهمية إعطاء الفرصة للثقافة العربية والإسلامية بصورها المختلفة للظهور في أدب الخيال العِلْمِي، الفرصة التي لم تعطها لها بداهة القصص الأوروبية والأمريكية، هذا إذا تجاوزنا طبعاً حقيقة أن أدب الخيال العِلْمِي العربي والمسلم تأليفاً وهمّاً هو بشكل عام أدب نادر كندرة الزئبق الأحمر ذاته!

لذا تعمّدت أن أجعل "المكان" في بعض قصصي شرقياً مائعاً، وجعلت "أسماء" بعض شخصياتها "عربي" قُح، لكنني مع ذلك لم أتحيز تحيزاً تاماً للثقافة العربية أو الإسلامية، فكما أنا موقن بأنه لابد و أن يكون للعرب والمسلمين تواجد في المستقبل لم أنس أنهم لن يكونوا لوحدهم فيه، كذلك أنا موقن بأن الثقافات واللغات والاقتصاديات البشرية بأنواعها - حقيرة كانت أم سامية - تقترب من بعضها في الحاضر و سيزداد تقاربها هذا في المستقبل لدرجة أنه سيصعب التفرقة بينها في المستقبل البعيد، وستكون من نتائج هذا الاندماج ولادة أسماء وثقافات وسلوكيات إنسانية جديدة لم تعهدها البشرية من قبل.

مع ذلك فمجموعتي هذه ليست سوى محاولة أولى مني من المؤكد أنها لن تكون كاملة الآن، لا أظن بأنني لمست بالفعل أهم قضايا وهموم حاضر ومستقبل شرقنا، لكنني لم أتوقف عن كتابة قصص الخيال العلمي بعد! وربما يظهر هذا المنهج بشكل أفضل في أعمالي "المستقبلية"، مع ذلك سأعد مجموعتي الأولى هذه ناجحة لو نجحت في تسليط الضوء على أهمية أدب "الخيال العلمي" لنا نحن العرب والمسلمين، لا مجرد الاكتفاء بتعريب نصوصه إلى العربية وإنما بالبدء في الإضافة إليه بما يعبر عن ماضينا وهموم حاضرنا وأحلامنا نحن المستقبلية، لا أدعو هنا بالطبع إلى أسلوب المحاضرات والعِظَات المملة التي تستخف بذكاء القارئ، أو التي تدعو لسياسات ومناهج دينية ضيقة، الأساليب التي سقطت في امتحان ما يطلبه القارئ العربي منذ عقد، إنني أعني ذلك الخيال العِلمِي المصاغ بأسلوب تمتزج فيه المفاجأة بالتشويق غير المُتَكَلِّف، مع الحقيقة العلمية المؤكدة، من خلال صور بلاغية أخَّاذة، ومصطلحات متداولة مفهومة للأغلبية، لا وحشية ولا مبتذلة ، بعيدة كبُعْد كوكب "بلوتو" عن السجع والحشو.

إنني موقن بمدى أهمية إقحام القارئ العربي في التفكير والمشاركة في التفكير في مشاكل هذا العصر التقنية، لأن أي إنسان لا يستطيع أن يَدَّعِي بأنها لن تؤثر في حياته الأُسَرية قبل الاجتماعية والوظيفية، بغض النظر عن جنسيته ومكانه الجغرافي، إضافة إلى أنها وسيلة تثقيفية وتعليمية فورية مرحة غير مباشرة لا شك في أنها ستجبر القارئ الموهوب على الجري نحو الكتب أو المتخصصين بحثاً عن إجابة

للتساؤلات العديدة التي ولدتها في ذهنه قراءة قصة خيال علمي.

لن أطيل عليك، سأتركك الآن مع هذه المجموعة، مع ملاحظة أن أحداثها تدور في كل الأزمان: في المستقبل ومنه إلى الماضي أو الحاضر أو العكس، لكنها مكانياً تنحصر في مكان فسيح واحد هو مجموعتنا الشمسية بأقمارها وأقرب مجرَة لها، لذا سيكون مفيداً جداً لو ألمت بأسماء ومواقع ومميزات هذه الأقمار والكواكب والمجرَّات قبل قراءتك لهذه المجموعة، إلا أنني أعتقد أن قراءتك لها قد تدفعك للبحث عن هذه المعلومات! حينها أكون قد حققت جزءاً يسيراً من هدفي الكبير.

م. عبدالحكيم عامر الطويل

مهندس نووي وكاتب ليبي

طرابلس الغرب، 2005/05/05

المؤلــــف



* ينحدر من أسرتين ليبيتين تقيمان بطرابلس منذ مئات السنين.
* تحصل في 1988 على بكالوريوس هندسة نووية من كلية الهندسة النووية والإلكترونية بجامعة الفاتح، طرابلس الغرب.
* يعمل حاليا في مركز بحوث الطاقات المتجددة وتحلية المياه الذي تأسس حديثاً كدمج لكل من مركز البحوث النووية ومركز بحوث الطاقة الشمسية ومركز بحوث تحلية المياه الليبي.
* مشروع تخرُّجه سُجِّل كبراءة اختراع في إدارة المعلومات والملكية الصناعية بليبيا.
* عضو الرابطة العامة للصحفيين الليبيين.
* عضو اتحاد الصحفيين العرب.
* عضو جمعية أصدقاء الشجرة الليبية.
* عضو الجمعية الليبية لإحياء التراث الثقافي.

* عضو الجمعية الليبية للوقاية من الإشعاع.

* مؤلف الكتاب التثقيفي: أتصدق؟ الطاقة النووية في بيتك!! الذي صدر في 1991 كالأول من نوعه في المكتبة العربية، حيث هدف من خلاله تعريف غير المتخصص بدور الطاقة الذرِّية الإيجابي في حياتنا اليومية.

* صدرت النسخة المنقحة لهذا الكتاب في شتاء 2004.

* كتب وقدم برنامجاً مسموعاً بعنوان الربيع الذري عبر إذاعة شعبية طرابلس من 1999/12/08 إلى 2000/01/05 عرَّف من خلاله بالدور الإيجابي للأشعة والطاقة الذرية في حياتنا العربية اليومية.

* كاتب في شؤون النقد الاجتماعي والسيارات والعلم والثقافة والتاريخ الليبي، حيث نشرت إنتاجه غالبية المطبوعات المحلية والكثير من المطبوعات العربية أهمها المجلة التاريخية المغاربية التي تصدرها مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات بتونس ومجلة البحرين الثقافية التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة البحرين ومجلة الرافد التي تصدرها دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة بدولة الإمارات ومجلة المَجرَّة التي يصدرها النادي العلمي الكويتي ومجلة العالم التي يصدرها المركز الوطني للدراسات الإستراتيجية السعودي.

* مؤلف كتاب تحت الطبع بعنوان: خفايا جديدة مثيرة تكشفها مقبرة طرابلس البروتستانتية.

* مشارك دائم في المواسم الثقافية لمشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة إطرابلس ومركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.

* إستضافه أكثر من برنامج ثقافي في أكثر من إذاعة ليبية.

* تحصَّل على الترتيب الأول في الدورة الأولى للمرشد السياحي التي نظمتها اللجنة الشعبية العامة للسياحة بمنطقة طرابلس في الفترة من 1996/12/01

إلى 1997/05/20، تحصل على إثرها على رخصة مرشد سياحي فئة أولى لمزاولة مهنة الإرشاد السياحي في جميع أنحاء ليبيا.

* اكتشف وأول من أشار أو كتب عن أكثر من موقع أثري ليبي هام.

* يمارس هواية التصوير الشمسي منذ دراسته الجامعية.

* شارك في معرض الصور الشمسية الذي أقامه المركز الفني لحماية البيئة الليبي والدار الليبية للفنون في الفترة من 05 إلى 1990/06/15 بمناسبتي اليوم العالمي للبيئة وأسبوع البحر الأبيض المتوسط، حيث تحصّلت إحدى أعماله في هذا المعرض على الجائزة الأولى في مجال البيئة الطبيعية وتحصّل عمل آخر على جائزة تشجيعية.

* أقام معرضه الشخصي الأول للصور بعنوان: ليبيا التي لم ترها بقاعة عرض دار حسن الفقيه حسن للفنون (القنصلية الفرنسية القديمة) في طرابلس القديمة من 06/26 إلى 2004/07/08.

* أقام معرضه الشخصي الثاني للصور بعنوان: اكتشاف ليبيا ثانية بالمعهد الثقافي الفرنسي بطرابلس الغرب من 01/18 إلى 2005/02/17 .

* حضر هذين المعرضين عدد كبير من الشخصيات الليبية والمقيمة المهتمة بالسياحة وعدد من الفنانين والمثقفين الليبيين المعروفين، كما كتبت عنهما أهم الصحف الليبية وعدد من المواقع الثقافية على شبكة المعلومات الدولية.

* هناك المزيد عن مناشطه الثقافية والعلمية والأثرية في موقعه الشخصي: www.abdulhakeem.com



وَصِيـَّة أب



كان رأسه مندلقاً بضيق على الوسادة، و يمتد جسده المُنْهَك طوال الفراش، كان لحافه القُطني الأزرق المُطَرَّز ببذخ يُغطي جسده حتى أسفل صدره، لكن ذراعية تنبسطان فوقه ملتصقتان بجانبيه، تنحنح بعض مرات بطريقة حاول فيها ألا يجرح حنجرته، لكن الصوت الجاف الذي خرج منه أرعب الجميع، حتى أن ابنته الصغرى "أُدَيْنَة" التي كانت جالسة على كرسي ملاصق للجهة اليسرى من رأسه أسرعت تنحني لتُقَرِّب الفوهة الملتوية لإبريق منقوع الزهور من فمه، لكنه لم يشرب إلا بعض قطرات، فما قرر البوح به هذا المساء هو من الخطورة بحيث لا يجب أن يسبقه إليه "عزرائيل"، الذي يخاله ينتظر فض هذا المجلس من خلف الباب في اللحظة التي تحلو له!

تفَحَّص وجوه أبنائه وبناته السبعة الذين تحيط كراسيهم بسريره كحبات عقد بيضاوي الشكل، كانت الفخامة تحيط بهم من كل جانب، السجاجيد الشرقية الكثيفة تغطي كامل أرضية الحجرة، الشمعدانات الذهبية والفضية تنتصب حول السرير وقرب النافذة، خلقت شموعها الكبيرة ظلالاً مختلفة الحجم جعلها نسيم النافذة الخفيف ترتجف على الجدران المخملية، التي تزدان بسيوف وخناجر

في أغمادها، وتروس مُذهَّبة ودروع مُفَضَّضة ومُرَصَّعة، أفخمها ذلك السيف والترس المعلقين فوق الجدار الذي يتكئ عليه رأس سريره، كانت هناك منضدة خشبية دائرية قصيرة بمستوى الركبة قرب الكرسي الذي تجلس عليه "أُدَيْنَة"، محفورة ومُطَعَّمَة بالذهب والجواهر المختلفة، ويتناثر فوقها بعض صحون وجرار فخارية صغيرة ممتلئة بأدهنة وزيوت ومساحيق مختلفة الألوان، في وسطها يقف إبريقان متوسطي الحجم منقوشين بترف، أحدهما نحاسي والآخر فضي، لكن كل هذه الفخامة لم تمنع الصمت الثقيل من أن يطبق عليهم، كانت الكآبة تلفُّهم جميعاً، وعيونهم ملؤها الدموع، ما أكثر ما تحلَّقوا هكذا طوال السنين الماضية، بل بعد وفاة والدتهم لم تتوقف جلساتهم الجماعية هذه يوماً، ربما لإحساسهم بأنه صار الأب والأم ، ولأنه لا قريب لهم في هذه المدينة غير بعضهم، لكن جلسة اليوم أرعبتهم، أعلمهم زوج شقيقتهم "أُدَيْنَة" - كبير أطباء الولاية - أن والدهم ربما لن يقوم من وعكته الأخيرة هذه، أما وأن طلب لقاءهم سريعاً دون أنسبائه وأحفاده فهذا ما جعلهم يرتعبون خوفاً، هل اقتربت فعلاً ساعته؟

أخذ شهيقاً عميقاً سحب به كمية كبيرة من البخور الذي كان ينطلق باستمرار من المبخرتين النحاسيتين الكبيرتين الموضوعتين في الزاويتين البعيدتين من الغرفة قبالته، اللتان ملأ دخانهما الأبيض النصف العلوي من الحجرة حتى كاد يلامس رؤوسهم، تمعَّن في شموع الثُرَيَّا المُذَهَّبة الضخمة التي تتدلى من وسط السقف ثم بالكاد استطاع

أن يسحب جسده السمين من تحت اللحاف بضغط راحتيه على السرير محاولاً رفع نصفه العلوي عن مستوى السرير ليتمكن من رؤيتهم جميعاً، قفزت ابنته الباكية "بِلْقيس" من كرسيها الملاصق للجهة اليمنى من رأسه وتركت يده اليمنى. التي كانت ممسكة بها طوال الوقت. لتُسرع بإضافة وسادة تحت رأسه، ولأنه أحس براحة أكبر في هذا الوضع تنهَّد بعمق ثم قال:

"أبنائي، لقد جمعتكم هذا المساء لأُخبركم بشيء ما كنت لأخبركم به لولا صراع داخلي استغرق فكري طوال الـ 10 سنوات الماضية"

توقف الابن الأكبر "عُبَيْدَة" عن تسوية عباءته بحزن فوق ركبتيه وحملق في وجه والده، هل خالف والده يوماً شيئاً مما كان يعِظهم به من جواهر الأدب والأخلاق؟ لكنه فهم نظرات ابنه فوراً، فأسرع يكمل حديثه وكأنه يوجِّهَه إليه:

"لا تدعوا أفكاركم تذهب بعيداً، فأنا من غرس في نفوسكم مكارم الأخلاق، ولا يُعقل أن أكون أول من ينتهكها، كل ما هناك هو أنني احتفظت بسر صغير قررت نسيانه تماماً قبل حتى أن تولدوا، لكنه في ذات الوقت السبب في إيماني إيماناً تاماً بالقوة الروحية الإيجابية للإنسان، وبما للصدق والإخلاص والكرامة والاحترام من أثر إيجابي على حضارة الجنس البشري، وهو ذات السبب الذي جعلني أقرر الهجرة إلى هذه المدينة قبل أن أتزوج بوالدتكم بزمن طويل رحمها الله"

التفت الإخوة لبعضهم في توتر، أبعد كل هذه السنين من الصدق المتبادل بينهم يكتشفون أن والدهم يخفي عنهم شيئاً؟

"إن كِبَر عمامتك يا "عُبَيْدة" لا تعني لأي ناظر إلا أنك أحد أجلّ فقهاء ولايتنا، وأنت يا "قَيْس" صرت من يتولى مزرعة وخيول العائلة بنجاح، ولعمري إن حدة ذكائك هو من ضاعف أراضيها وغلالها، وأنت يا "مُهَنَّد" تتولى تجارتنا في التوابل بنجاح كبير، حتى صرت قبل بلوغك الثلاثين كبير تجار المدينة دون منازع، ومع أنك يا "مُعاوية" قررت ألا تخرج من مرصدك إلا للطعام والشراب إلا أنك صرت عالم علماء الولاية في فترة قصيرة، يشهد لك في ذلك تفوقك على أخوتك في عدد حاسديك! كل هذا النجاح أصبتموه وأنتم على صغر سنكم، فإذا أضفنا أنكم سليل غريب عن هذه المدينة يتحدث لغتها بلكنة غريبة، هاجر إليها - كما يزعم هو - معدماً كانت النتيجة شكوكاً وهواجساً تأكل شرفكم وصدقكم، فوالله لولا ضخامة قصورنا وكثرة عبيدنا وحرسنا ما وصلنا قط إلى هذه الأعمار، وما كان إلا السجن بيتاً وقبراً لنا، فكيف يمكن لشريف مهاجر غريب معدم أن يصيب وأبناؤه ما أصابوا من مجد في وقت وجيز؟ أليست سوى السرقة والاحتيال السبيل الأقرب منطقياً إلى ذلك؟"

حاول ابنه البكر "عُبَيْدة" أن يتحدث - ربما تدفعه عاطفته لا شعورياً للدفاع عن مجدهم بأنه ثمرة جهودهم وصدقهم وإخلاصهم - إلا أنه أسرع يسكته بمد أصابع يده اليسرى الأربع نحو فمه، فالدقائق التي يعتقد أن "عزرائيل" قد خصصها له قد لا تكفي لكل ما يريد قوله!

"إنني طوال الوقت أحس بمدى الألم الذي تحسون به من جراء إحساسكم الخفي بغريتكم عن سكان هذه المدينة، الإحساس الذي ما بحتم لي به أبداً، لكنني أعلم أنه يوخز عمق نفوسكم، فمن دون كل سكان هذه المدينة أنتم الوحيدون الذين لا عم لكم ولا عمة ولا ابن عم أو عمة، فباستثناء خال وخالة ليس هناك إلا نسب مقطوع ينتهي بغريب يزعم أنه جاء في شبابه من مكان بعيد، ويكده وعرقه وصدقه أصاب مجداً وشهرة جعلت كبار رجال الولاية يتسابقون لنيل شرف الزواج من بناته، حتى صار طبيب أطباء الولاية وقائد فرسانها و أمير بحريتها ليسوا سوى أنسباء له"

سعل بشدة عدة مرات واضعاً قبضة يده اليمنى مضمومة شبه ملاصقة لشفتيه، فأسرع "مُهَنّد" يتجه إلى النافذة المجاورة له وأغلق مصراعها بإحكام، أما "أُدَيْنة" الباكية فقد أسرعت بيدها اليسرى إلى تناول صحن من الطاولة، وبعد أن لست قاعه بسبابتها اليمنى بدأت بيدها المرتعشة تدعك صدره بمرهم شفاف فاحت رائحته القوية حتى تغلبت لبعض دقائق على رائحة البخور، أحس بشيء من الراحة، فشجعه ذلك على إكمال حديثه:

"... رغم أنني أشفق عليكم من صعوبة فهم ما أريد قوله إلا أنني مضطر اضطرارا للبوح به، لا لشيء إلا لأجعلكم تثقون في أن نسبكم الذي تعتقدون في قرارة أنفسكم أنه قد يكون وضيعاً أو حتى مشبوه هو ليس كذلك، كل ما هناك هو أنه غريب جداً عن هذا الزمان"

نظر أبناؤه بعضهم لبعض في استغراب، لكنه سرعان ما جذب انتباههم إليه مرة أخرى بقوله:

"أنتم تعلمون أنني ما كنت أكره شيئاً مثل كرهي الخوض في طفولتي، كلكم تعرفون هذا، كان عُذري في ذلك دائماً هو أن طفولتي بائسة جداً، لدرجة أن مُجَرَّد تذكُّر بعض ملامحها يجعلني في ألم كبير، إن كل ذلك صحيح ما كذبت عليكم فيه بشيء، لكنه ليس كل شيء، تبقت جزئية صغيرة كنت أردت ألا يكون لها مكان آخر بعد صدري إلا قبري"

هنا توقف عن حديثه، فقد وصل مسامعه بكاء ابنته الخجولة "زُبَيْدَة" الجالسة أمامه على حافة رجليه، كانت تحاول إخفاء صوت بكائها بمسح فمها وأنفها بمنديلها الأزرق المزركش بكلتا يديها، لم يعلم ما إذا كانت تبكي إشفاقاً على طفولته البائسة أم لإحساسها بِدُنُو أجله، مع ذلك ابتسم لها وكأنه يريدها أن تستثمر فرصة استمراره حياً لتسمع ما يريد قوله ، حينما هدأت قليلاً أكمل قائلاً:

"كانت طفولتي بائسة حقاً لكنها أبشع مما قد تتصورون، لقد فتحت عيوني والفقر المدقع والدمار يملأ كل مكان، فقد ولدت بعد أيام قليلة من انتهاء أحدث حرب شهدتها البلاد، نعم يا أبنائي، عشت في جو يسيطر على أفراده هدف وحيد للحياة هو إشباع الأنا لأقصى حد، بل وما بعد هذا الحد إن أمكن، الأنا هي الإله، وكل البشر عبيدٌ لها، صارت المادة هي الحاكم بأمر الله، وصارت الوقاحة

والسرقة والطمع والخيانة والقتل والاحتيال وإلغاء الآخر ضرورة حياتية لا تستقيم المعيشة بدونها، ولا يصير الإنسان إنساناً بغيرها، كانت الناس منشغلة دائماً في تلاحم مرير، قتال دموي مستمر لا يتوقف إلا استعداداً للبدء من جديد، قتال من أجل السيطرة على أي شيء، لا يهم ما الشيء، المهم امتلاك كل شيء، كوب، عربة، سلاح، لباس، أي شيء، صار النصر مؤقتاً، والحرب ثابتة، وما توقف القتال إلا إشارة لبدء قتال آخر جديد"

بدت على وجوه أبنائه نظرات الاستغراب الشديد، لدرجة أن أكثرهم فتح فاه، كان سؤال واحد يلح في أذهانهم: عن أي حرب مستمرة هذه التي يتحدث عنها والدهم والتي تحصد الناس حصداً؟ لكنه لم يعط لأحد فرصة طرح سؤال آخر، كان مستعجلاً لإكمال حديثه:

"كانت إحدى النتائج البسيطة لهذه الحروب هي قذارة كل شيء حولنا، الأرض ليست سوى أشلاء بشرية قديمة مُهْتَرئة وأخرى مُمَزَّقَة، كنت ترى هنا وهناك فتات أجساد مختلط بعظام وأسنان وجماجم يصعب عليك تحديد البشري منها من الحيواني، الأثري منها من الحديث، إضافة إلى بقايا آلات قتال صدئت منذ آلاف السنين تتكوَّم على آلات معدنية أحدث مختلطة ببقايا أثاث حديث يحترق فوق قديم متفحم، كنت ترى شظايا الصخور مختلطة بملابس عسكرية ومدنية بالية طرازها من كل عهد ومكان، بِرَك دم طازج مختلط بِـبُرادة سوداء، يتجمَّع في قاعها زيوت معدنية ودماء سوداء قديمة، صارت قمم الآثار المتبقية للأبنية الشاهقة ـ والتي كانت

مساكن يوماً ما. مجرد ملاذات للمُشوَّهين من البشر والطيور، يختبئون فيها طمعاً في أن يُمْضُوا ما بقي لهم من عُمر كريه بسلام، أما الهواء فكان شيئاً آخر تماماً، إنتشر دخان كثيف نتيجة الحرائق المستمرة ولم ينقشع أبداً، فصار الظلام جزءاً من حياتنا القذرة، هل تصدقوني يا أبنائي لو قلت لكم إنني وأخي الصغير حينما كنا أطفالاً كنا نلعب لعبة من يستطيع أولاً تخمين مكان الشمس في السماء؟ هل تصدقون أن حرارة هذه الشموع التي حولكم كانت أكثر قليلاً من كمية الحرارة التي تستقبلها أجسادنا في اليوم الواحد؟ باختصار صارت الحرب هي الحياة، أما السلام الوحيد الحقيقي فلم يكن سوى الموت، وحينما شمل هذا السلام أبي وأمي وإخوتي جميعاً قررت الهجرة، لم يَعُد في ذهني من حلم سوى الهجرة"

هنا لم تتمالك "زُبَيْدَة" نفسها، فصرخت بفحيح مندهش:

"أي بلد هذه التي كنت تعيش بها يا أبي؟ وأي حرب هذه التي لم تتحدث عنها كل كتب التاريخ التي قرأناها؟"

سكت للحظات، تردد في الإجابة، لكنه بلع ريقه ثم تمتم هامساً وكأنه يقصد ألا يسمعه أحد: (ستتحدث عنها يوماً ما يا ابنتي!) ثم أسرع يكمل حديثه قائلاً:

"بعد بحث مُتأنٍّ استغرق مني سنوات كريهة أخرى نجحت في اكتشاف مكان العربة الوحيدة التي كانت لتنقلني من هذا الجحيم، لكنها كانت بحاجة إلى صيانة شاقة، مما عنى إهدار سنوات قبيحة

أخرى من عمري، لكن حينما صارت جاهزة اخترت هذه المدينة بالذات، وفي خلال بعض دقائق تقرر الأمر وصِرت أحد سكانها، فلا تتصوروا الفرحة العظيمة التي شعرت بها حينما رأيت السماء الزرقاء للمرة الأولى في حياتي، هل تصدقون يا أبنائي أنها كانت المرة الأولى التي أعرف فيها أن للشمس أشعة دافئة؟ هل تصدقون أنها كانت المرة الأولى التي أعرف فيها أن للأرض غطاءاً أخضر؟ هل تصدقون أنها كانت المرة الأولى التي أعرف فيها أن للهواء رائحة أخرى غير رائحة الدخان؟"

توقفت "بِلْقيس" فجأة عن تحريك المبخرة بشكل دائري متواصل فوق رأسه، هنا أحس بأنها ظنت أنه يلمح إلى دخان بخورها مما يعني أنه أعطاها انطباعاً لم يقصده، فأسرع يُغيِّر الحديث قائلاً:

"كل ذلك جعل المشاكل التي واجهتها مع أهل هذه المدينة أشبه بمشاجرات الأطفال، كان كل شيء متوفراً لاستمرار حياة هانئة بشكل لا يعني - بالنسبة لي - إلا أنها الجنَّة التي كنت أسمعها كحُلم وحيد لأبي: الماء النظيف المجَّاني يجري على سطح الأرض، والأرض الخضراء التي لا يملكها أحد، وحيوانات تجري بعُذرية هنا وهناك، والناس طيبون لا يعبدون المادة بمثل من عشت معهم، حتى أقذرهم لم يكن ليتوانى عن النجدة حينما يجدها ضرورة، فماذا أريد أكثر من هذا؟ قررت عندها أن أُغيِّر اسمي إلى الأبد وأكدِّ وأجتهد حتى أعوِّض كل تلك السنين الشقية التي عشتها، أما تَعَرُّفي على والدتكم فقد كان أمراً كالمعجزة، اكتشفت أنها من ذلك النوع البشري الذي كان يقول

عنه أبي إنه كان أكثر رقة وجمالاً من الرجال قبل نشوب الحرب، كان يقول لي إنه سمع عن جَدِّه من جد جَدِّه أن الإناث كن خاضعات للرجال برقتهن، وكنت أنظر إليه ببلاهة، فكلامه كان خيالاً غير موجود على الواقع، لكن هذا الخيال تجسَّد أمامي فجأة في فتيات هذه المدينة، إلا أن أُمَّكم كانت بالطبع أكثرهن قرباً لتلك الصورة الخيالية التي رسمتها أحاديث أبي في ذهني، فلم أجد نفسي إلا متزوجاً لها في بعض أسابيع!"

التفت يساره فجأة، فقد سمع صوت شيء معدني يصطك بخفة بجسم صلب، كانوا جميعاً يجلسون جامدين كأنهم تماثيل رخامية بعيون لا رموش لها، لكن "قَيْس" كان أكثرهم اندهاشا، حتى أنه لم يلحظ سقوط عمامته المُرصَّعة واصطدامها بمسند كرسيه الخلفي! ابتسم قليلاً وهو ينظر إليه، كان يود أن ينبهه إلى ضرورة أن يرفع عمامته إلا أنه أغلق عينيه لثوان، فقد أرهقه الحديث وصار يُحس بالتعب الشديد، يبدو أنه تأخر كثيراً في إبلاغهم بالحقيقة، حتى أن تفاصيلها المعقدة صارت من الكثرة بحيث بدأ يخشى أنهم لم يعودوا قادرين على استيعابها، فكيف يمكنه إقناع هذا الفقيه وهذا التاجر وهذا العالِم بأن نبوغهم ما كان الفضل الأكبر فيه لجهدهم بقدر ما هو لتطورهم الوراثي؟ كيف يمكنه إقناع هاتين الفاتنات أن سر أنوثتهن الطاغية هو تباعد أنسالهن عن آباء جيرانهن وصديقاتهن إلى حد لم يبعده أحد منهم أو حتى أحد أجدادهم؟ اعتصره الألم للحظة، فشعر بغيبوبة خفيفة، هنا تساءل بينه وبين

نفسه: هل هي علامة الرحيل؟ لكنه لم يصل بعد إلى ما يريده، لذا قرر أن يقفز بحديثه فوراً إلى النهاية:

"أبنائي، يؤسفني أنني لن أتمكن من أن أشرح لكم كل شيء بالتفصيل، لذا أهم ما يهمني هو أنكم لا بد من أن تؤمنوا بأن نسبكم شريف نظيف، ليس وضيعاً أو حتى مشبوه كما يظن الناس أو حتى بعضكم بينه وبين نفسه، إنكم من نسل قوي نادر أصرَّ برغم الدمار والانحطاط على أن يتمسك بِأجلِّ القيم البشرية النبيلة التي ما صَنعَت إلا أرقى الحضارات البشرية، بل يُصِرُّ على أن يُوَرِّث هذه القيم إلى أبنائه و أحفاده، إنكم يا أبنائي من نسل فريد فرادة التاريخ، فريد فرادة هجرتي ذاتها"

صمت لبعض لحظات، فقد ألجم لسانه لهاث سريع وخفقان شديد في قلبه، لذا رأى أن يكتفي بالدليل المادي الوحيد الذي تبقَّى له على كلامه، حاول أن يُدْخِل يده المرتعشة في جيب عباءته الداخلي، وحينما نجح في ذلك جذب شيئاً صغيراً لامع جداً تدلى من سلسلة ذهبية مبرومة بأناقة، ثم التفت إلى ابنه الفلكي وقال:

"مُعاوية"، أريدك أن تحتفظ بهذه القلادة، لقد ورثتها عن أبي الذي ورثها عن جَدِّي، لذا أفترض أن تحافظ عليها أنت كذلك لتورِّثها إلى أحد أبنائك وتوصيه بأن يفعل ذات الفعل مع أحد أحفاده، قال لي أبي نقلاً عن جَدِّه إنها خلاصة كل المعرفة البشرية الخَيِّرة البنَّاءة قبل أن يدمرها الأحفاد المجانين، احتفظ بها، ليس مهماً أن تفهمها

الآن، فقط احتفظ بها كما احتفظت بها أنا وجَدّك ووالده، فربما تكون النسخة الوحيدة المتبقية منها في كل هذا الكون ... الآن"

قفز "مُعاوية" من كرسيه سريعاً وانحنى ليمسك بكلتا يديه وبوقار شديد هذه القلادة، كانت تشبه قطعة الألماس في التماعها، لكنه الشبه الوحيد معها، فقد كانت قرصاً صغيراً في حجم الكف ذو سمك رقيق جداً، أبيض لامع وكأنه قرص قمر في ليلة ظلماء، يخترق وسطه ثقب دائري صغير محفور بدقة مدهشة بالكاد يسمح لإصبع يد بالمرور فيه، معلّقة فيه السلسلة المبرومة، لاحظ "مُعاوية" وجود كلمات عربية صغيرة جداً محفورة على الحافة الداخلية للثقب، حاول قراءتها بصعوبة بصوت هامس قصد به إسماع والده قائلاً:

"... موسوعة "ماكرو هيل" للعلوم والتقنية، طبعة سنة 3477م ... ما معنى هذا يا أبي ...؟"

لم يسمع أي إجابة، كان نَفَسُ والده في هذه اللحظات متوقفاً في هدوء!

علاقة استثنائية



كانا كالعادة يجلسان جنباً إلى جنب داخل غرفة تَحَكُّم محطة "امروء القيس"[1] الشمسية التي تَـمُدُّ جزءاً كبيراً من مستوطنات "عطارد" و"الزهراء" الصغيرة بما تحتاجه من كهرباء، كانا يحدقان في شاشات ضخمة أمامهما وأصابعهما تلْمِسان من حين لآخر إحدى الأزرار الكثيفة الموزَّعة فوق سطح المنضدة أسفل سواعدهم الممتدة، كان لهذه المنضدة الفضل الكبير في تعلقهما ببعضهما، إذ نتيجة لعملهما المتواصل بمحاذاتها لسنوات نشأت بينهما علاقة نمت مع الزمن حتى أنهما قررا الزواج، لكنه لم يفهم لم مازالت تماطل في تحديد موعده

كانت الساعة تشير إلى الثانية ليلاً من صباح يوم الجمعة، لكنه كان منهمكاً جداً في عمله حتى بدا وكأنه لا يحس بجلوسها بجانبه، كان من حين لآخر يضغط بِمُشْط إحدى قدميه إحدى أزرار قاعدة كرسيه ليطير مقترباً من زر بعيد على الجزء الأيسر من المنضدة الضخمة أو ليدير قرصاً من الأقراص خلفه، لكنها كانت على العكس منه تجلس قريبة منه في هدوء، كان كل شيء في قطاعها على ما يرام، فأسندت ظهرها إلى الكرسي وأراحت يديها بوضعهما في حِجْرِها،

---

(1) اسم حقيقي اعتمده الاتحاد الفضائي الدولي لإحدى حُفَر كوكب عطارد قطرها 50 كلم.

لكن لأنها أحسَّت بأن الهدوء التام يطبق على الغرفة رأت أنها قد تكون لحظة مناسبة لجس رأيه بشكل هادئ فيما ينكد صفو ذهنها في عرض زواجه:

"شِهَاب ... أريد أن أبوح لك بسر ... لابد أن تعرفه ... قبل الزواج ... لابد!"

زفر زفيراً عصبياً ولم يجب، كانت عيناه مركزتين على منحنى برتقالي يرتعش بينما انهمكت أصابعه في ضغط بعض الأزرار حتى أن مرفقه الأيمن لكز بخفة عدة مرات الحافة اليسرى لظهر كرسيها القريب منه دون أن يحس بذلك، ظل على صمته هذا بعض لحظات ليقول لها بعد ذلك دون أن يتوقف عن عمله أو يغير من زاوية جلوسه:

"إذا كنتِ تنوين فتح ملف ماضيك مرة أخرى فأرجوك لا تفعلي، لقد قلت لكِ مراراً إن هذا الماضي لا يهمني"

أدار كرسيه بعد ذلك بضغطة من مشط قدمه اليمنى حتى صار أمامها، ركَّز عينيه في عينيها ثم وضع يديه على ركبتيها وقال:

"لا أريد معرفة أي شيء عن ماضيك، أريد فقط حاضرك، وبعد ذلك مستقبلنا، مستقبلنا معاً، هذا ما أريد، لقد قلت لك ذلك مراراً فلماذا تصرين على العكس؟"

أطرقت عينيها خجلاً، فركت أطراف أصابع يديها المفتوحتين معاً عدة مرات ثم قالت بتردد:

"وأنا ... لا أريد أن أتحدث عن الماضي، بل المستقبل، لكن المشكلة تتعلق بـ... أبنائنا المرتقبين"

تغيَّر وجهه فجأة، فاستدار نحو الشاشة التي كان يرقبها وتظاهر بالعودة إلى عمله، رجعت عيونه تحملق في منحنى آخر ولفَّت يده اليسرى بعنف قرص أحمر صغير قريب، لكنها أكملت حديثها وكأنه لم يبتعد عنها:

"أخشى أن ... تتخلى عني ... لو قلت لك ... حسناً ... هل تحب الأطفال؟"

هنا التفت نحوها مرة أخرى ببطء وكأنه سمع حديثاً عجباً، ارتسمت على وجهه إمارات الدهشة لبعض لحظات ثم قال:

"ماذا تقصدين؟"

أجابت بسرعة قائلة:

"حسناً ... سأقولها لك بصراحة ... يمكنك أن تقول.. إني... إلى درجة ما ... أقصد ... إلى حد كبير... حسناً ... يمكن القول إني ... عاقِر...!"

وعلى عكس ما كانت تتوقع ذهلت حينما ظهرت على وجهه علامات فرح طفل! تلتها ابتسامة عريضة على فمه ختمها بقوله:

"فقط؟ أهذا كل ما في الأمر؟"

"إنه الأهم بنظري ... ألا تعتقد أنه العائق الأكبر الذي قد لا

يسمح لعلاقتنا بأن تستمر؟"

ضحك ضحكة هامسة اهتز لها كامل جسده عدة مرات، ثم قرَّب كرسيها منه حتى تمكن من وضع يديه على يديها، وبعد أن تأمل وجهها بصمت لبعض لحظات قال لها برقة بالغة:

"حسناً ... يمكننا أن نتبنَّي طفلاً أليس كذلك؟"

ابتسمت في ذهول غير مصدقة، وبعد أن تأملت وجهه لدقائق في حيرة كبيرة قالت له:

"أتقصد أن هذا لا يزعجك؟ ألهذا الحد أنت متمسك بي؟"

توقَّف في هذه اللحظة عن الابتسام وتحولت قسمات وجهه إلى الجِدِّية، لكن يديه ظلتا تُمْسِكان بيديها المضمومتين، وبعد لحظات من الصمت الجاد قال في هدوء هامس:

"... ربما أكثر قليلاً مما تتصوَّرين"

ساد بعدها صمت تام بينهما وإن استمرت عيناهما تحدقان في بعضهما البعض، فجأة ظهرت على وجهها علامات تأفف، فأبعدت يديه بهدوء ثم استدارت بسرعة نحو إحدى الشاشات وتظاهرت بأنها تهتم بنقطة تتحرك فيها مما جعلها تقرَّب وجهها أكثر منها، ثم دون أن تحوَّل عينيها منها قالت له:

"أواثق أنت حقاً مما تقول؟"

أجابها دون أن يزيل عينيه منها:

"نعم ... وستثبت لك الأيام المقبلة ذلك"

"حسناً ... في الواقع ... مسألة الأطفال ... ليست... أقصد... لا أظن أن هذه المسألة وحدها قد تعيق علاقتنا"

وكأنه لم يستمع إلى ما قالت قاطعها قائلاً:

"والآن أي مراسم زواج تفضلين؟ سلتية؟ عربية؟ أزتيكية؟ أتعلمين؟ أُفَضِّل ذلك النمط الأندلسي، ما رأيك؟"

لكنها كانت على ما يبدو مُصِرَّة على إكمال حديثها المضطرب في تلك الأمسية. فقالت دون أن تُحَوِّل عينيها عن شاشتها ودون أن تعير حديثه أي انتباه:

"شِهاب ... هل تقبل بي ... حتى ولو اعترفت لك بأني ..."

هنا سارع بِمَدٍّ يده اليمنى نحو وجهها ووضع سبابته ووسطاه على شفتيها ثم قال:

"أرجوك لا تكملي ... قلت لك لا أريد أن أسمع أي شيء عن ماضيك، إنني أقبلك هكذا، كما أنت، لماذا تُعَقِّدي المسألة؟ لماذا تـُصِرِّين على إفساد سعادتنا؟"

صمتت ولم تـُكْمِل، وحينما شعر بأنها امتثلت أخيراً لرغبته تركت يده فمها، ثم اقترب بكرسيه أكثر منها وقال لها بصوت

خفيض رقيق:

"لم تقولي لي ... أي مركز زواج تفضلين؟"

لكن يبدو أنها قررت أن تَحْسِمِ قلقها هذه الليلة، فقالت له بصوت عال حرصت على أن تؤكد فيه كل كلمة ستقولها:

"شِهاب ... هل ستُصِرُّ على الزواج بي حتى ولو اعترفت لك بأنني ... فتاة ... آلية؟"

هنا انتفض من كرسيه كمن مَسَّه تيار كهربي ثم صرخ قائلاً:

"ماذا؟ ... ... مِثلي؟؟؟"

مِن مُذَكِّرات جَدّي



كنت مُصراً على أن تكون مكتبة جَدِّي من نصيبي ، كانت مركونة منذ زمن بعيد في منزل العائلة القديم ، ولأنني الوحيد من بين ورثته من يحمل اسمه وذات تخصصه العلمي لم يستغرق الأمر كثيراً في إقناع الجميع بأحقيتي في وراثتها.

الحق أنني أهملت تصفح مجلداتها العتيقة لفترة طويلة ، وحينما بدأت هذا العمل ذلك المساء اكتشفت صدفة أن إحدى مجلداتها هي مذكرات لِجَدِّي ، كانت مفاجأة طريفة ، إذ لم يقل لي أحد أن جَدِّي كان يدوِّن مذكراته ، إلا أن ما وجدته مُدوَّناً في آخر صفحاتها كان الأكثر إذهالاً ، ورغبة مني في أن تشاركوني بالرأي أعرض عليكم هنا بأمانة تامة ودون أي تدخل مني ما كتبه هناك:

الخميس ، 1991/06/20

ما سوف أذكره هنا لن أجرؤ على روايته لأحد ، فالتهمة التي ستلصق بي من قبل البسطاء هي أنني تأثرت بمرضاي ، أما زملائي المتخصصين فلا شك في أنهم سيجدونها حجة لتنحيتي من طريقهم ، لكن للتاريخ ، ولتبرئة نفسي من أي تهمة ستلصق بي ، وإلى أن يصل الرقي البشري إلى مرحلة تُمَكِّنه من تفسير الحدث رأيت من واجبي أن أسجل كل ما سمعته من الحالة 28 بمستشفاي.

كان يسكن المقبرة المجاورة لمسكن العائلة منذ أن عرفت الدنيا ، جميع سكان الحي يعرفونه كمتخلف ، لا أحد يعرف من أين جاء ، ولا من هم أقاربه ، حتى أن بعض شباب الحي يتندرون بأنه ولد نتيجة تزاوج اثنين من الموتى! ويحاول البعض الآخر عقلنة هذا التفسير بأنه جاء نتيجة تزاوج جِنّي من ميتة! فالموتى الذكور - حسب اعتقادهم - لم يعد الزواج يجذبهم!!

الحق أن فضولي حول حالة "سالم" هو الذي جعلني أرغب في أن أدرس الطب منذ دخلت الثانوية ، والطب النفسي بالذات ، لم يكن "سالم" مؤذياً ، اعتقد الجميع أنه أبكم لأننا لا نراه إلا صامت مشدوه منزو في ركن من المقبرة ، لكن اليوم علمت أنه صار يهذي بجمل غير مرتبطة ويبكي باستمرار ، ربما كنتيجة للشيخوخة التي هدته ، وبما أنه صار مزعجاً للجميع رأيت أنها فرصة مناسبة لإحضاره إلى مستشفاي ، فبالكشف عنه سأسكت الفضول الذي زامنني طوال عمري ، ومن ناحية أخرى هي محاولة لتوفير مأوى آمن له يجعله يعيش آخر عمره بشكل مريح ، كمكافأة مني لشخص كان السبب الرئيس في نجاحي المهني!

السبت ، 1991/06/22

حينما أُحْضِرَ إلى المستشفى اليوم كان "سالم" يرتدي ثياباً غريبة رثة بشكل لا يوصف ، أما رائحته فتؤكد أنه لم يعرف ماء الغسيل منذ سنوات ، كانت لحيته البيضاء مسترسلة وشعره أشعثاً ،

وعيونه معلقة في شيء ما خارج هذا الزمان . أعطيت أوامري لكبيرة الممرضات بأن تهتم بنظافته ، ثم تُقدم له وجبة العشاء في غرفته ، وسيكون الحالة الأولى التي أراها صباح الغد ، هكذا صار "سالم" النزيل رقم 28 بمستشفاي

الأحد ، 1991/06/23

كدت أنسى "سالم" هذا الصباح ، حينما اقتربت من حجرته رأيته مستلقياً على سريره باستسلام شبه تام ، يبدو أن عشاء وحقنة البارحة قد حسَّنتا من حالته البدنية والنفسية ، فلا يبدو مقاوماً للممرضة التي كانت تقوم بحلق لحيته

أردت استثمار فرصة هدوءه فدخلت الغرفة بهدوء شديد مقترباً قليلاً منه ثم قلت:

"كيف حالك يا "سالم"؟ "

لم يرد ، لكنه استمر مستسلماً لشفرة الممرضة ، حوَّرت سؤالي قليلاً:

"أرجو أن تكون مرتاحاً هنا"

هنا التفت لي وكأنه اكتشف وجودي لتوه ، استمر صامتاً لكنه ابتسم قليلاً ، أحسست بأنه اطمأن لي ، فسارعت بسؤاله السؤال الذي كان يلح منذ أن عرفته:

"ما الذي جعلك تعيش في هذه المقبرة يا "سالم"؟ "

تنهَّد بعمق ثم قال بصوت هامس بالكاد سمعته:

"أنا السبب"

"أنت السبب في ماذا يا "سالم"؟ "

التفت لي هذه المرة و نظر بجدية ثم قال:

"أنا السبب في كل ما جرى ، خصوصاً لحظة احتراق سيارتي "

ذهلت لهذا الرد ، إذاً يبدو أن لسالم ماضياً مثيراً مجهولاً رغم أنه ليس بالضرورة أن يكون ذا علاقة حقيقية بالسيارات ، لهذا سارعت في أن أطلب من الممرضة تركنا لوحدنا ثم جلست يمينه على حافة السرير قرب رجليه وسألته مرة أخرى بهدوء متلهف:

"هل كنت تملك سيارة؟"

"بالطبع!"

"حسناً يا "سالم" ، حدثني عن هذه السيارة"

"لقد أحرقها ذلك القذر"

"مَن؟"

"بهاء"

"من "بهاء" هذا؟"

هنا اغرورقت عينا "سالم" بالدموع ثم انتفض قائلاً:

"أرجوك ، لا أريد الحديث عنه ، لقد هزمني هذا المجرم ..."

ثم أجهش بالبكاء بطريقة مريرة أثارت عجبي ، لقد تجاوز ألمه ألم إنسان مريض ، فلا شك في أنه كان ضحية غدر ، تصوِّرته رجل أعمال ناجح غرر به أحد معارفه ، لكنه لم يتوقف عن البكاء المرير ، لذلك رأيت أن أكتفي اليوم ، ربَّت على كتفه ونصحته بألا يفكر في أي شيء الآن إلا الخلود للنوم ، أغلقت بعد ذلك باب حجرته بحرص ثم هرولت مسرعاً إلى آخر الممر حيث مكتب الممرضة المناوبة ونبهتها في أن تستمر في إعطائه الأدوية التي أوصيت بها ، وسآتي مساء الغد لأكمل حديثي معه ، إذ كان عليَّ حضور ندوة علمية في الصباح.

الاثنين ، 1991/06/24

كنت أنتظر مساء هذا اليوم بفارغ الصبر ، فقد ازدادت قصة "سالم" تشويقاً بالنسبة لي ، حينما دخلت حجرته وجدته يقابلني بظهره ، إذ كان واقفاً قرب النافذة التي تطل على الحديقة الخضراء الفسيحة للمستشفى ، لكنه لم يكن ينظر إلى شيء منها ، كانت عيناه تخترقان المكان بشرود طويل عميق ، وكمحاولة مني لجذبه إلى عالمنا اقتربت منه ، وبعد أن لمست كتفه الأيمن بلطف سألته:

"كيف حالك اليوم يا "سالم"؟"

التفت لي دون أن يرد ، تنهد بعمق ثم عاد للنظر خارج النافذة ، ما هي إلا ثوانٍ حتى قال:

"لا فائدة من كل ما ستفعله يا دكتور، إن حالتي ميئوس منها"

اقتربت قليلاً من جهته اليسرى ، وبعد أن وضعت يدي على كتفه الأيسر قلت:

"علَّمتني الحياة يا "سالم" أن الحالات الميئوس منها نادرة جداً!"

التفت لي بتشنج ثم قال بنفاد صبر:

"ومع ذلك أنا متأكد من أن حالتي ليس من الممكن حلها"

هنا عاجلته سريعاً بقولي:

"لماذا لا تحدثني عن مشكلتك يا "سالم" بدلاً من القفز إلى آخرها؟"

صمت طويلاً ، ثم استدار نصف دورة ناحية جهته اليمنى ، اقترب من سريره ثم تمدد على ظهره ببطء ، بدا وكأن صارت لديه الرغبة في الحديث ، رغبة من لم تتح له فرصة الحديث بحرية لسنوات ، شبك راحتي يديه ووضعهما على الوسادة ، ثم أسند رأسه عليهما ، وبينما علَّق عيونه على الثريا المتدلية من وسط السقف قال:

"كانت هي دون غيرها من بين كل الفتيات من انجذبت إليها ، لم أكن أعلم أن "بهاء" كان يريدها كذلك"

ابتسمت ابتسامة خفية ، إذاً فهي قصة عاطفية أخرى!!

فوجدت نفسي أنظر إليه بابتسامة وأقول بيني وبين نفسي: يا لك من خبيث يا "سالم" !

"... صحيح كان قريباً منها ، لكن نظراتها كانت توحي بأنها لي ، كنت شاباً قوياً ، طموحاً ، فلم يجدني "بهاء" سوى عقبة صغيرة وجب تجاوزها ، لذا حينما شعر بأنني جاد في إبعاده عنها قرر أن يبعدني هو ، فجهَّز لي طريقة جذرية ، اكتشفت خطته لكنني لم أقيِّم قدراته بالشكل الصحيح ، لذا حينما جاء إلى بيت جدِّي الأول ، لحقته فوراً إلى هناك ..."

هنا وجدت نفسي مضطر للمقاطعة قائلاً:

"لحظة يا سالم ، وما علاقة بيت جَدِّك بالأمر ، أقصد لماذا جاء إليه بالذات؟"

"كان يقصد قتله!"

شعرت بخيبة أمل جديدة ، هنا تذكرت حديث شباب الحي حول الجُمَل المتناقضة التي كان يبوح بها "سالم" من حين لآخر ، فها أن أفكاره عادت إلى عدم الترابط المنطقي من جديد ، ووجدت نفسي مضطراً لمسايرته إلى حين إكمال قصته ، فسألته مستوضحاً:

"وهل تعتقد أن هذا هو الحل الصحيح يا "سالم"؟"

"بالطبع ، إنه الحل الجذري الذي سيخلصه مني إلى الأبد"

"أَمُتَـعَلِّق أنت بِجَدِّك إلى هذا الحد؟"

"بالطبع ، إلى أقصى حد ، وهو يعرف ذلك جيداً"

"وهل قتله؟"

"لقد سبقته ، وصلت بيت جَدِّي قبله بدقائق وأخذته معي ، بهذا أفشلت مخططه ، لكنه استغل هذه اللحظات أفضل استغلال ، فطالما أنني كنت بعيداً عن سيارتي في تلك الأثناء أسرع إليها خفية وأحرقها!"

ما أن لفظ هذه الكلمات حتى عادت عيونه تدمع ثم أجهش بالبكاء الساخن المرير واضعاً كفيه على وجهه ، وجدت نفسي مرتبكاً أربِت على كتفه وأطيب خاطره قائلاً:

"ليكن يا "سالم" ، أهذا مبرر لأن تفقد صوابك وتقرر اعتزال الناس وتسكن المقبرة؟ لمجرد احتراق سيارتك؟"

أنزل يديه من على وجهه ورد بتشنج غريب:

"وهل هناك خطأ في أن يسكن أحد ما حديقة بيته؟"

أثارتني إجابته الغريبة هذه فسألته مستفسراً:

"حديقة بيتك؟ كيف هذا؟"

لم يبدو على "سالم" أنه سمع سؤالي ، ولأنني أُتْخِمت بتناقضاته اليوم رأيت حكمة الانتقال إلى موضوع آخر:

"سالم ، من أي بلد أنت؟"

"لم أترك هذه المدينة طوال حياتي"

"إذاً فأنت من أهلها! أين كنت تسكن بها ، ومن هم أهلك؟"

"أين كنت أسكن؟ في المكان الذي أخرجتموني منه!"

"أقصد قبل أن تسكن المقبرة أين كنت تسكن؟"

"لم أغادر ما تسمونه بالمقبرة طوال حياتي"

هنا أحسست بشيء من نفاد الصبر ، وتذكرت حكاية أنه ولد نتيجة زواج أموات أو أرواح في هذه المقبرة ، لا بد أن صاحب هذه التفسير كان قد بنى أسطورته على إجابة "سالم" هذه ، وبما أن إجابات "سالم" كانت بلا فائدة لي حتى الآن رأيت أن الحديث عن سيارته بصفتها مفاجأة اليوم قد يساعد في توضيح أمور أخرى:

"حسناً ، قل لي يا "سالم" ماذا فعلت بعد أن احترقت سيارتك؟ هل تخلَّيت عن فكرة الانتقام من "بهاء"؟"

"تقصد استسلمت؟ بعد أن أضاع عمري في هذا الزمن الكريه لم تتبق لدي من رغبة في الحياة إلا انتظار الإمساك به وتقطيعه قطعاً صغيرة ، لكن القذر لم يفكر في العودة مطلقاً!"

"ماذا فعلت إذاً؟"

"وماذا بإمكاني أن أفعل بعد أن أحرق وسيلتي الوحيدة للوصول إليه؟"

"هل تعني أنه انتقل للعيش بعيد جداً؟"

"هو عاد إلى حيث يعيش، لكنه فعلاً مكان بعيد، بعيد جداً"

"ألم تكن لتستطيع الذهاب إليه بأي وسيلة نقل أخرى؟ ولو سيراً على الأقدام بدلاً من الانعكاف في المقبرة؟"

هنا ابتسم "سالم" ابتسامة مريرة ثم قال:

"وهل السير على الأقدام يمكنه أن يوصلني إلى سنة 3421؟"

(هذا آخر سطر مكتوب في مذكرات جَدِّي!)

مجَرّد سائِق أجرة



العديد من أصدقائي يؤكدون أنني لن أعرف الفقر لو تركت مهنتي الحالية، إذ أنني - وكأي سائق أُجرة في أي زمان - يكفيني تسويق الأحداث الغزيرة التي أعايشها مع ركابي! [1]

الحق أنهم يبالغون قليلاً، لكن تأكيدهم هذا لم يأت من فراغ، إنني أسمع الكثير من القصص يومياً من ركابي، الذين لا يخرجون عن عمال ومهندسي مناجم "أغادير"[2] الشهيرة، وموظفي وعمال شركات المزارع المائية الضخمة في "غانيميد"[3] ، حيث أنقلهم من هذه المزارع والمناجم إلى مقار سكناهم في "أوروبا"[4] أو إلى

---

(1) نُشِرَت في ص 16 من العدد 191 الصادر في 1998/09 من مجلة "المَجرَّة" التي يصدرها "النادي العِلمي الكويتي"

(2) مدينة عربية مغربية سياحية أطلق الاتحاد الفضائي الدولي اسمها على إحدى مواقع قمر "كاليستو" أحد أقمار كوكب المشتري الذي يوصف بأنه أكثر عوالم مجموعتنا الشمسية المليئة بالحفر، يتكون سطحه من الجليد القذر، وفي سنة 2000 كُشِفَ عن إمكانية وجود الماء بصورته السائلة تحت سطحه، ولأنه خارج مجال إشعاعات كوكبه المشتري فقد يكون العالم الأول في نظام المشتري الذي يزوره رواد الفضاء مستقبلاً.

(3) أحد أقمار كوكب المشتري وأكبر أقمار مجموعتنا الشمسية الذي يتكون سطحه من الجليد والصخر بنسب متساوية، في سنة 2000 كُشِفَ عن وجود محيط ضخم من المياه المالحة تحت سطحه

(4) من أقمار كوكب المشتري، يُعْتَقد أن سطحه مُكَوَّن من قشرة جليدية عمقها نحو 100 كلم، تحتها محيط من الماء أو جليد غير متجمد تحته قلب من السيليكا، أي المكون الرئيس لرمال الأرض.

مؤسساتهم الترفيهية في باقي المستوطنات، في خط لم أحد عنه طوال الـ 10 سنوات الماضية

ورغم أن مركبتي من طراز سنة 3101 إلا أن الكثيرين من ركابي يقولون لي إنهم اختاروا مركبتي بالذات لأنهم صاروا يتشوقون لراحة المركبات القديمة، فقد سئموا تعقيدات مركبات الأُجرة الحديثة.

كنت أُفَضِّل دائماً بدء رحلاتي من "أوروبا"، فبالإضافة إلى وفرة مياه الشرب المحلي فيها منذ اكتشافه في أواخر القرن العشرين، يتوفر كذلك وقود مركبتي القديم، ولأن مطاره الأقدم : "ليبيا 7 "[5] يُعد محطة العبور[6] الرئيسة لكل المنطقة تجده مكتظاً دائماً بالناس، المغادرين في إجازات من عمال ومهندسين، والقادمين من إجازاتهم، إضافة إلى جمع كبير من الوكلاء والمستثمرين الذين لا يكادون يغادرون المنطقة حتى يعودوا إليها بسرعة، فخامات مناجم هذه المنطقة الهائلة والرخيصة يسيل لها لعاب أي صاحب مشروع استثماري.

مع ذلك، وعلى غير العادة كان ذلك المساء مملاً جداً، لم يقترب أحد من عربتي رغم علامة "غير شاغر" تبرق بوضوح عليها، كان من

---

(5) اسم حقيقي اعتمده الاتحاد الفضائي الدولي لأحد أخاديد سطح هذا القمر.

(6) ترانزيت TRANSIT.

عادتي في مثل هذه الظروف النادرة أن أقترب من القبة الضخمة التي تعلو رأسي و تلف كامل المستوطنة القديمة الصغيرة لأتمعَّن من خلال جدارها الشفاف بقعة المشتري الشهيرة، التي لازال كوكبها الضخم ينتأ من نحو نصف أفق "أوروبا" و يخفي نصف سمائه منذ الخليقة.

حينما رجعت إلى عربتي تذكرت صديقي "لي" الذي عمل طوال حياته في مناجم هذه المنطقة، فأول يوم جئته هنا استغربت تماماً منظر تغطية نصف السماء بكوكب ضخم مخطط، قال لي حينها أمازال هناك من يستغرب هذا المنظر المثير للسأم؟

لكن ما قطع حبل أفكاري سريعاً هو اقتراب ذلك الفتى المين، اتجه رأساً إلى مركبتي وكأنها له، بدا من لباسه أنه أحد أبناء مزارعي القهوة المترفين في مستعمرة "ابن رُشد"[7] الثانية، ومن المؤسف أن عدداً قليلاً منهم مازال يتذكر كم تعب أجدادهم في سبيل تحويل تلك البقعة الجرداء إلى ما صارت عليه اليوم من رفاهة، لكن نظرة عينيه العميقة والجادة على غير العادة جعلتني أكاد أجزم أنه سليل ذلك الفلاح الثائر الذي نجح في افتكاك استقلال مستوطنته هذه بالقوة.

كان يتجه نحو مركبتي بخطوات بطيئة واثقة، تتبعه حقيبته

---

(7)اسم حقيقي اعتمده الاتحاد الفضائي الدولي لأحد حُفر سطح القمر الأرضي

كالعادة بجانبه، وحينما صعد مركبتي واعتدل على كرسيه المجاور نزع نظارتيه وقال لي بلا أي مقدمات:

"فندق الجليد لو سمحت"

كانت تلفه كآبة حادة، كمن يود إلهاء نفسه عن التفكير في الموت، أحسست بضرورة أن تبدأ الرحلة بشيء من المرح فقلت له:

"إن لك ذوقاً رفيعاً يا سيدي، فهذا الفندق شبه خال في هذه الفترة، كما أنه فصل الشتاء، ولا أفضل من هذا الجو للاختلاء بالنفس"

التفت الرجل التفاتة من سحبه فجأة من درع نيتروني ثقيل يحمي به نفسه حتى من أقرب المقربين له، ابتسم لثوان ثم قال بأسلوب من اكتشف للمرة الأولى وجود شخص يفهمه:

"أتعرف المكان جيداً؟"

أجبته بسرعة:

"بالطبع يا سيدي، أليس على "أنانكا"؟[8] لا شك في أنه سيناسبك تماماً"

لكنني حينما التفت له وجدته يتمتم هامساً:

"هذا لا يهم، لقد اخترته عشوائياً" !

---

(8) من أبعد أقمار كوكب المشتري

ثم رحلت عيونه بعيداً جداً عن مجال مجرَّتنا، قلت في نفسي: "يبدو أنها المشكلة العتيقة ذاتها"، وكمحاولة مني لكسر الصمت قلت:

"هيا، ستجد غيرها في هذا الفندق"

هنا انتفض الشاب وكأن شيئاً ما وخزه في مكان محرج يخجل جداً الإعلان عنه ، اعتدل بعدها في جلسته ثم رمقني بنظرة جانبية وقال لي:

"كنت أظن أن مركبتك قديمة، هل ركَّبت بها جهاز أفكار حديث؟"

ضحكت بنشوة بينما مازالت عيوني معلقة على شبح التابع السادس وهو يضمحل سريعاً من الزاوية اليمنى السفلية لزجاج مركبتي الأمامي، لم يخطئ من قال إن سائق الأُجرة يصير أخصائياً نفسياً مع الزمن!

"سيدي، إن أصدقائي ينصحونني دائماً باستبدال مركبتي بأخرى جديدة، لا لشيء إلا لخلوها من أي تقنية حديثة، وزبائني يختارونني عمداً من بين كل مركبات أُجرة المطار لا لشيء إلا لأنها لا تحوي أي تقنية حديثة!"

عاد الشاب إلى صمته، تفسيراً سريعاً لكن عيونه ظلت معلقة

على وجهي، كأنه ينتظر مني تفسير سريع لما قلت قبل قليل! كان من الواضح أن سمو أخلاقه صبغ عليه نوعاً من التهذيب يجعله يتحرَّج من أن يعترف بأي صراع نفسي، وكمحاولة مني لمساعدته في تجاوز هذا الإحراج بادرته قائلاً:

"سيدي، هذه ليست مشكلتك وحدك، إنها أقدم مشكلة بشرية، وقد تكون هي التاريخ البشري ذاته، لابد وأن أحد أجدادك أو جداتك قد عاني من هذا الموقف، ولابد وأن أحد أجدادهم قد عانى منه كذلك، ورغم كل هذا التطور التقني الذي نعيشه ظل العلاج هو هو: الزمن"

كأن جملتي هذه كانت ما يبحث عنه هذا الشاب من مخرج شرعي ليفرغ ما في جوفه، ومع السكون الكامل للجو الذي كان يحيط بنا باستثناء صوت اختراق المركبة لبعض من الأشعة الكونية علقت عيناه على الزجاج أمامه، وما هي إلا دقائق حتى بدأ يغمغم وكأنه يحدث نفسه:

"بعد كل هذه التضحيات ترفض المشروع ..."

"من تقصد؟"

"أخصائية الاستنبات، لقد تعرَّفت عليها بمحطة "كليوباترا"[9] الزهراوية، كنت بحاجة إلى طفرات جديدة من أفخر أنواع القهوة

(9)اسم حقيقي اعتمده الاتحاد الفضائي الدولي لأحد سهول سطح كوكب الزهرة.

يمكنها مقاومة جفاف تربة المساحة التي اشتراها والدي لتوه بقصد زيادة منتوجنا ليغطي كافة طلبيات مجموعة مطاعم "تيتان"[10]، كان العرض الأفضل الذي تحصَّلنا عليه هو عرض هذه المحطة لما يوفره طقسها من ميزات استثنائية تزيد من كفاءة معداتها ومنتوجها بالتالي، كانت مسؤولة هناك، إلا أن هذا لم يكن السبب الذي لفت نظري لها، كانت في الواقع جملة ميزات وجدتها - ويشكل أثار استغرابي - تشترك فيها معي، الأهم من هذا هو ما اعتقدته تطابق حتى في المنهج الفكري، فبالإضافة إلى التشابه الكبير في لون البشرة والشعر والعينين والطول والوزن، كان الكثير مما أبحث عنه بداخلها : الهدوء، الالتزام، النظرة المستقبلية، كانت مخلصة في العمل لدرجة أنها كانت تردد دائماً أنها ما عرفت شيئاً آخر غيره في حياتها، وأنا من النوع الملتزم، لذا توقعت أن تكون الشريك المناسب، حتى أنني لم أفكر في معرفة الكثير عنها، لقد اكتفيت بالشخصية الماثلة أمامي، لم يكن يهمني كثيراً ما يوجد في بطاقتها، كان والدي يذكرني بضرورة أن تكون من أرضيي القمر، فالأصل حسب اعتقاده أحد العوامل التي لا يجب إغفالها، لكن لأنني أمقت العنصرية، قديمها وجديدها وحتى مستقبلها كنت أتصوره وكأنه قادم من القرن العشرين"

"المهم رأيها هي يا سيدي لا رأي والدك!"

---

(10) أحد أقماركوكب زحل، من الكواكب النادرة في مجموعتنا الشمسية التي لها غلاف جوي ثبت أنه من الهيدروكربونات، يؤكد الفلكيون أنه لا يشبه أي جسم آخر في مجموعتنا الشمسية.

"كانت مترددة في البدء، والحق أنني كنت أتحجج دائماً بأن سلالة القهوة التي تنتجها تحتاج إلى ترقية أكبر، لا لشيء إلا لأقترب من عقلها أكثر، كانت نظرتها المتجردة تجاه الناس أقرب ما تكون إلى اعتزالهم بأنفة، أما أجمل ما رأيته فيها فهو عدم اكتراثها بماضي الأُسر، لقد أشبعني والدي حديثاً عن شرف قبيلتنا، وسمو أجدادنا الذين حَوَّلوا المستحيل إلى حياة، لكن هذه الفتاة لا تسمع منها إلا اليوم والمستقبل، فكرها لن تجد فيه مساحة للماضي لدرجة أثارت دهشتي"

"أظنها لمست عالماً كنت تتوق إليه، عالم يبعدك عن الجو الأسطوري الذي عشت فيه طوال حياتك، وهذا هو سر فرادتها بالنسبة لك"

لم أكد أتم كلماتي حتى التفت وقال بشيء من الحدة:

"بالضبط"

ثم عاد إلى هدوئه وعيونه لم تترك الزجاج الذي أمامه، بعد قليل أكمل حديثه الخافت قائلاً:

"اعتقدت أن لها روح متمردة مشبعة بالأفكار المثالية التي تكاد لا تجد حتى من يعرفها، وهذا يعني تطابقاً مرتفعاً جداً مع ذاتي، لقد لمست فيها احتقارا للجنس البشري برمته، كنت أسمعها تقول: إنني أشعر بالخجل أمام أحلام مفكري القرن العشرين، ماذا لو نهض أحد منهم الآن ورأى أن العنصرية التي كان يتوقع

اختفاءها في بعض عقود من الزمن مازالت موجودة حتى اليوم!"

"نعم، فبعد أن تخلصنا من عنصرية اللون، بدأت تظهر عنصرية الأصل، فالبشر المولودون في المستعمرات البشرية خارج الأرض هم بشر من الدرجة الثانية، أما المستنسخون فرغم أنهم يبذلون جهداً كبيراً لتوفير نمط الحياة الذي نعيشه على الأرض، وغيرهم صار حتى من أثرى أثرياء مجموعتنا الشمسية مازالوا في نظر الآخرين مجرد آلات لحمية حقيرة!!"

"بل إنها كانت تقول لي دائما إن سر تمسكها بعملها في هذه المحطة النائية هو أنها تقدم لها فرصة الابتعاد عن الاحتكاك بكل البشر"

"إن صاحبتك هذه نادرة حقاً، إن لها أفكاراً ترشحها لأن تتولى عملاً آخر غير الاستنبات"

"هذا بالضبط ما قلته لنفسي، وكنت عازماً على الاستفادة من نفوذ عائلتي لعمل ذلك، لكنني كنت أفاجأ بأنها دائماً تُغَيِّر الموضوع بسرعة"

"لاشك في أن هذا يتوافق تماماً مع فكرها الرصين، لا أظنك ناسياً رفض الحكماء الأوائل تولي شؤون القضاء مثلاً رغم ما فيه من هيبة وتنفذ، ورغم تهديد بعضهم بالسجن والقتل في حالة تمنعهم"

"وهذا ما كنت أقوله لنفسي حتى صباح اليوم، كنت سأستلم

الشحنة الأخيرة من السلالات الجديدة، فرأيتها فرصة أن أُبَيِّن لها اختياري لها كزوجة، ومقترحي في نقلها إلى أي مكان ترغبه غير الزهرة"

هنا سارعت في مقاطعته قائلاً:

"بالطبع ترددت في البداية، سيدي إن هذا الأمر طبيعي وما كان يجب أن تستغربه من هذه الفتاة النادرة التي تكاد لا تشبه أبناء جيلها في شيء"

"نعم لقد ترددت، لكنني أصررت على معرفة السبب، لا أحب أن أكون مادحاً لنفسي، لكنني اعتقدت أنها ستصعق من السعادة لو تقدم لها شخص مثلي، لا أظنه يخفى عليك مكانة قبيلتنا في كل مستعمرات الكواكب الداخلية، لا مادياً ولا حتى شرفاً أسرياً، فلماذا ترفض؟"

"أعتقد أنه كان عليك أن تعطيها وقتاً كافياً للتفكير"

"وهل تظن أن فتاة جريئة الفكر مثل هذه تحتاج إلى مثل هذا الوقت؟"

"تقصد أنها صارحتك السبب؟"

"بالطبع"

إستبقته بسرعة قائلاً:

"تـُفَضِّل شخص آخر أليس كذلك؟"

"أبداً، لقد سألتها ذات السؤال منذ أن عرفتها، فابتسمت ونفت ذلك بكل وضوح"

"إذاً اسمح لي، إن نفوذ أسرتك المادي والمعنوي ربما جعلها تحس بأنها لن تكون معك إلا فاقدة لحريتها، التي كما فهمت منك تضعها الأهم في حياتها"

"ولا حتى هذا الاحتمال، أتريد أن تعرف السبب أم ستستمر في مقاطعتي؟"

"أوه آسف، إنني الآن أشد حرصاً على معرفة السبب"

"قد تتصورني مازحاً لو قلت لك إن إجابتها كشفت عن عنصريتها!"

"وهل هذا معقول؟ إنك منذ قليل كنت تقول إنها تشعر بالخجل من مفكري القرن العشرين إلى غير ذلك من هذا الكلام، هل تقصد أنها كانت تكذب؟"

"لا، إنها بالفعل تكره الفكر العنصري إلى حد كُرْهها للبشر ذاتهم، وهذا ما جعلها تؤمن بفكر معاكس إلى الحد الأقصى، أتذكر كيف أن ما سماه أبناء القرن العشرين بالحرية الإباحية لم يكن سوى رد فعل خاطئ وانتقام لا شعوري تجاه الكبت؟ كذلك كان رد

فعلها تجاه العنصرية، صارت إحدى قناعاتها المقدسة ألا تتزوج إلا مَن كان من ذات نوعها البشري"

"لم أفهم، أعتقد أنك بشري أليس كذلك؟"

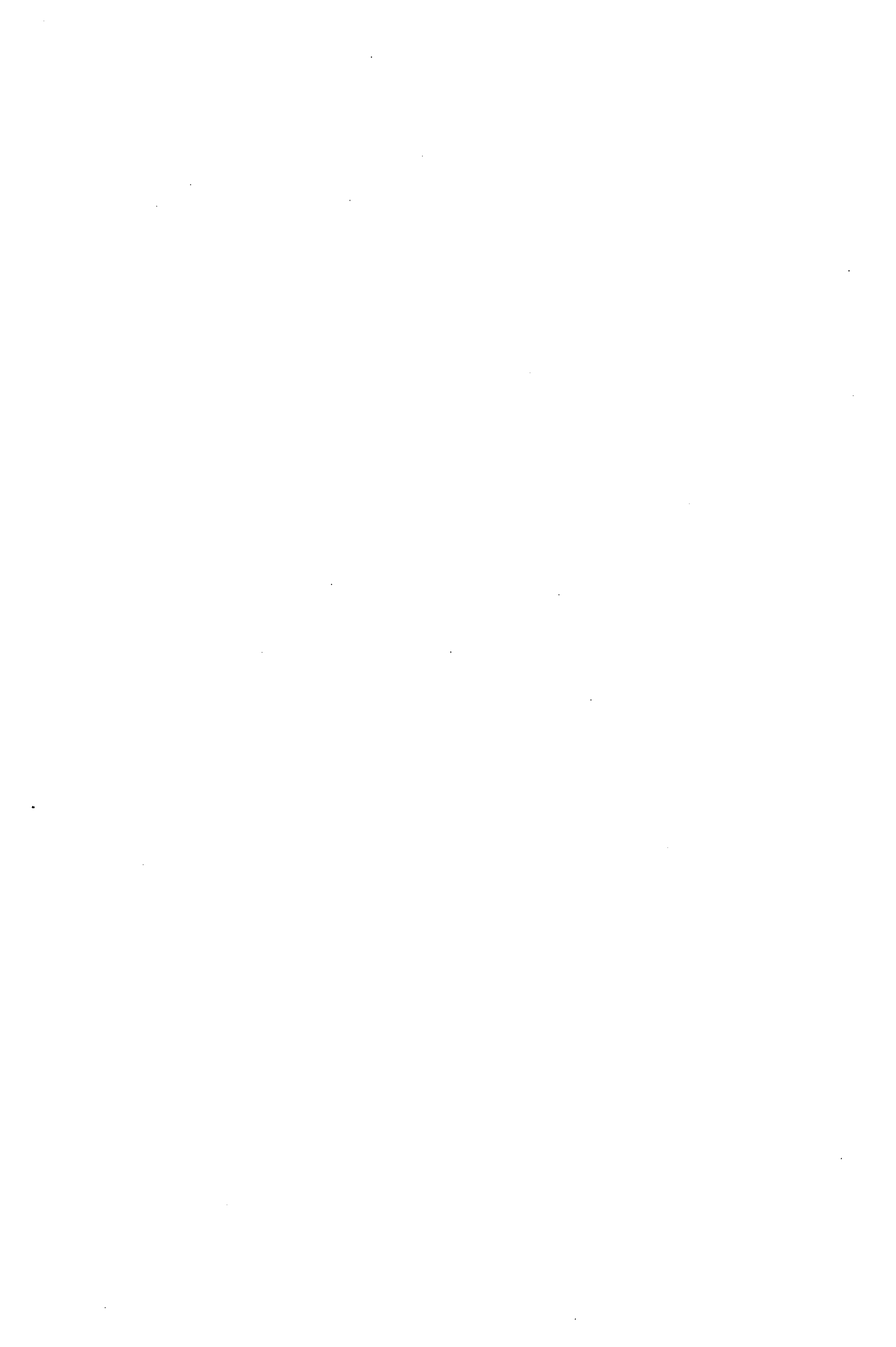
"بالطبع، وهذه هي المشكلة"

"مشكلة في أن تكون بشري؟؟!"

"بالنسبة لها نعم، لقد قالت لي هذا الصباح – و للمرة الأولى – إنها لا تفكر في الزواج إلا مِمَن كان من نوعها البشري ... أي مُسْتَنْسَخ" !!!

غرقت بعد ذلك العربة في صمت تام لم نفق منه إلا وأضواء فندق الجليد أسفلنا !

تقاعُد أستاذ الماضي



كنت أحد ضيوف الشرف لحفل تكريم الدكتور "عبدالحق"، أستاذ كرسي "عِلْمُ الماضي" بـ "كلية علم التاريخ التطبيقي" لأنني من الذين كرَّسوا حياتهم لتطوير منهج الكلية الذي يهدف إلى نقل أهمية علم التاريخ من الاستفادة النظرية من أخطاء المجتمعات البشرية. بهدف تخطيط أفضل للحياة الحاضرة والمستقبلية. إلى عِلْم يُصحح فعلياً الأخطاء البشرية لترسيخ حياة حاضرة ومستقبلية مُثلى وذلك بالتزاوج ما بين ما كان يعرف بعلوم الهندسة الاجتماعية والتاريخ والسلوك الحيواني.

كان تكريم الدكتور "عبدالحق" بمناسبة حلول يوم تقاعده، ولجذب عدد أكبر من المدعوين جُعِلَ برنامج تكريمه ضمن حفل تَخَرُّج دفعة سنة 3857م، ومع ذلك ما كان لينجذب كل هذا الجمع الغفير لولا أن الكلية أعلنت منذ أكثر من شهر أن الدكتور "عبدالحق" سيُعلن في كلمته التي سيلقيها بالمناسبة خلاصة ورقتين علميتين جديدتين يعتبرهما مفاجأة جديدة هي الأولى من نوعها، لم يسبق لهما أن نشرتا أو حتى تحدث عنهما، وعندما حان وقت كلمة الدكتور "عبدالحق" تَلا المُنَشِّط الرقمي للحفل أمام الجمع المحتشد من أعلى منصة قاعة التكريم المظلمة بيضاوية الشكل نبذة مختصرة عن

سيرة الدكتور "عبدالحق" العلمية، ما إن أنهى حديثه حتى ظهرت أمامهم صورة عملاقة ثلاثية للدكتور تدفق منها صوته قائلاً:

"أشكر لكم حضوركم، وأرجو ألا تكون الدعاية التي سبقت كلمتي هذه قد أعطت للمفاجأة حجماً أكبر من حقيقتها، ولأنكم تعلمون أنني من أكثر مُحَرِّضي المحاضرين على الكلام القليل المُدِل سأدخل الموضوع مباشرة: بعد انتهاء مرحلة إعادة كتابة الماضي بالأساليب العلمية الحديثة آنذاك- من زيارات ميدانية للماضي ومشاهدة وتسجيل مباشر لأحداثه المستهدفة ومقارنتها بقوانين علوم المجتمع والسلوك الحيواني. بدت كُلِّيتنا رائدة في الاستفادة من الكم المعلوماتي الثمين المتراكم منذ أكثر من 500 سنة لتطبق هدف دراستها بشكل عملي، في هذا المجال أود أن أشير إلى ورقتين معينتين اعتزازي الشديد بهما دون بحوثي الأخرى هو الذي جعلني أرجئ الإعلان عنهما إلى هذا اليوم، إلا أنه لابد من التنويه إلى أنني لم أكن لأستطيع إنجازهما لولا إخلاص ونشاط تلامذتي "مُهَنَّد" و"أبو طالب" و"وجْد" "

هنا اختفت صورة الدكتور الثلاثية لتظهر بدلاً منها صور ثلاثية عملاقة لهؤلاء الطلبة واحداً واحداً على التوالي، بعد استعراض قصير لكل منهم عادت صورة الدكتور ثم سمع صوته ينبثق منها بهدوئه المعتاد يقول:

"الورقة الأولى تناولت البحث عن آليات جديدة للرفع من

المستوى الحضاري لأمم إنسانية كانت في طريقها إلى التحضر، لا بهدف رفع مستواها الحضاري بشكل مفاجئ وإنما بهدف تأكيد إمكانية تكَيُّف الشعوب البدائية مع تقنيات سابقة لزمانها مما يؤكد نظرية استقلالية الإبداع الإنساني عن الزمان والمكان، وأن ازدهاره لا يتطلب سوى بيئة آمنة يسكنها أناس إيجابيون، لذلك فضَّلنا اختيار مرحلة زمنية مُعَيَّنة يكون فيها ازدهار أمة ما عظيماً لكنه كان وشيك الفناء بكارثة ما، من بين عدة خيارات كانت مدينة بغداد في القرن الثاني الميلادي الأكثر ملائمة للبحث، وقد قامت "وجْد" بالمهمة على أكمل وجه، مما جعلني لا أتردد في أن أعطيها علامة تخَرُّج كاملة، لقد أتقنت وضع "وسيلة التطور" في ذلك النسيج الزمني بحيث تظهر وكأنها من نِتاج فكر أهله، ببساطة عرضت على صائغ عشوائي للبيع ما عَرَّفته له كوسيلة متطورة لطلاء الحلي بالذهب، وعاء فخاري أبيض مِصْفِر ارتفاعه 15 سنتيمتراً ، مملوء بخمرة العنب، بداخله اسطوانة نحاسية ارتفاعها 9 سنتيمترات وقطرها 2.5 سنتيمتراً مسدودة من أسفلها ومفتوحة من أعلاها مثبتة بالنفط (المعروف في تلك المنطقة آنذاك قبل أن يستخرج من أرضها بشكل جنوني أيام القرن الـ 20) بداخلها قضيب حديدي معزول عنها من أسفل بطبقة من النفط بارتفاع 3سنتيمترات وطرفه العلوي يبرز بـ 1 سنتيمتراً فوق طبقة عازلة من الرصاص، وبانتقال سريع إلى القرن التالي اتضح أن هذه الوسيلة انتشرت ما بين الصائغين،

حتى أنهم بدءوا يوصلون أكثر من واحدة منها لمضاعفة قوة الطلاء، وهكذا دخل إلى ذلك الزمان ما عرف بعد أكثر من 1000 سنة بنضيدة بغداد"

في هذه اللحظة استبدلت صورة الدكتور أمام الضيوف بصورة ثلاثية عملاقة لإناء فخاري عتيق وكان بإمكان الجميع أن يقرءوا الكتابة تحته هكذا:

متحف الآثار العراقي

أثبت العالم الألماني "وليم كوينيج" أن هذه هي أول نضيدة كهربية في التاريخ صُنِعَت ما بين 248 ق.م. 226 م.

عَثَـرَ عليها في بغداد عُمَّال مد خطوط السكك الحديدية في 06 1936 في قبر مغطى بألواح حجرية[1].

علت همهمات شديدة بين الحضور، بعضهم استنكر والبعض الآخر استغرق في ضحك هستيري طويل والبعض ظل يسأل من هم حوله غير مصدق، كانت مفاجأة كبيرة للجميع، فعلى الرغم من شهرة هذه القصة التاريخية لم يكن أحد يتوقع أن الدكتور "عبدالحق" كان سببها، بعد جهد استطاع الدكتور جذب انتباه الحضور إليه مرة أخرى بقوله:

"... طبعاً لو تركنا هذا السر يستمر لاكتشف العراقيون الكهرباء قبل "فولتا"، ولصار عهد نهاية الدولة العباسية هو عصر نهضة إنسانية

---

(1) حدث تاريخي حقيقي.

يسبق عصر النهضة الإيطالي بـ1300 سنة، لكنني قلت في بداية حديثي إن هذا المشروع لا يهدف إلى الرفع المفاجئ للمستوى الحضاري البشري في مكان ما بقدر ما يهدف إلى تأكيد أو نفي نظرية استقلالية الإبداع الإنساني عن الزمان والمكان، لذلك كان اختيارنا لزمن وضع هذه النضيدة هو فترة ما قبل غزو "هولاكو" لبغداد، لقد غزا "هولاكو" "بغداد" ومات السر مع من ماتوا وما أتلف من وثائق، لكن التجربة نجحت، لقد نجح إنسان ذلك الزمان في استثمار هذه التقنية الدخيلة عليه، وهذا هو ما هدف المشروع إلى إثباته" !!

أطبق صمت تام على القاعة، فرأى الدكتور "عبدالحق" أن يستثمر ذلك بالانتقال مباشرة إلى موضوعه التالي:

"... هدف الورقة الثانية مماثل للأولى، لكننا استعملنا هنا "وسيلة تطويرية" أخرى أكثر مباشرة، لقد اخترنا مكان وضع الوسيلة إيطاليا، لا لشيء إلا لأنها كانت مهد الحضارة الرومانية، أول حضارة أوروبية مزدهرة، أما الزمان فكان أواخر عصر الظلام فيها وبدايات ما عُرِفَ بعصر النهضة، أما النتيجة فيمكن القول إنها إثبات نهائي للنَظرية، وربما لتقدمنا العلمي اليوم!"

صمت الدكتور "عبدالحق" بعض لحظات قاصداً بذلك التأكد من أن الجميع ينصت إليه باهتمام، فزاد صمت القاعة لدرجة أنه كان بإمكان كل واحد منهم سماع أصوات تنفس الآخرين، عندها أكمل الدكتور حديثه بقوله:

"لاشك في أن الجميع يعلم أن في هذا العصر لمعت شخصية كما لم تلمع أي شخصية أخرى: "ليوناردو دافينشي"، فقد وضع مخططات لاختراعات قال عنها فيما بعد علماء القرن الـ20 إنها تسبق زمانه بمئات السنين، إذ أن طاقتها الحركية لم تكن سوى قوة الذراع أو القدم البشرية أو الحيوانية، لا كهرباء ولا أي نوع آخر متقدم من الطاقة، وبعد أن صنعوا نماذج منها بمواد عصره وبتطبيق حرفي لمخططاتها الأصلية نجحوا في تشغيلها، أشهر هذه الاختراعات: وسيلة بسيطة تُمَكِّن عجلات عربية من السير بسرعات مختلفة بمجرد تحريك عتلة يدوية فيها، ومخرطة خشب ومعادن تُشَغَّل بالقدم، وآلة لصنع المبرد، وآلة دقيقة لنسج القماش، وعربة عسكرية مُدَرَّعة تُعَد جدة الآلة الأحدث "الدَّبابة"، ومظلة للهبوط الآمن من الطائرات، وبذلة غوص، ونظام الأهوسة، واكتشاف قوة البخار الذي أدى إلى تصميم أول آلة بخارية، وجنزير الدراجات، كل ذلك بالحديد والخشب والقماش وباليد والقدم البشرية أو الحيوانية"

اختفت في هذه اللحظة مرة أخرى الصورة العملاقة للدكتور لتظهر بدلاً منها صور ثلاثية عملاقة متعاقبة لهذه المخترعات، لكن صوت الدكتور ظل مصاحباً لها أثناء تداولها قائلاً:

"... إلا أن أي من هذه المخترعات لم ينفذ في زمانه، فمعاصروه كانوا يتأسفون على الوقت الذي أضاعه في تخطيطها، إذ كان من الممكن ـ حسب اعتقادهم ـ أن يستثمر موهبته في

الرسم بشكل أفضل لو أنه ركَّز على رسم اللوحات الزيتية!! لكن إحساس العلماء بقيمتها بعد 400 سنة جعلها أساس النهضة التقنية الحالية".

اختفت هنا صور هذه المخترعات وظهرت بدلاً منها صورة ملوَّنة لنهر يتدفق في عصر قديم جداً، أثناء ذلك سُمِع صوت الدكتور مصاحباً لهذه الصورة يقول:

"... من المعروف كذلك أن وصيته ذاتها لم تخلو من استثنائية، فقد جاء في مصدر قديم مشكوك في صحته أنه أوصى بوضع تابوته في فتحة في أحد جدران مختبره لمدة 24 ساعة قبل دفنه، اعتقد الجميع أنه بهذه الطريقة إنما يودِّع اختراعاته بأسلوب متميز يتناسب وتميز أسلوب حياته، لكن عندما حضر الخدم بعد 24 ساعة لم يجدوا التابوت، بعد تمحيص دقيق اتضح أن الفتحة التي وضع فيها ينزلق كل ما يوضع فيها عبر قناة ضيقة متعرجة ليتجه نحو نهر الأرنو[2]! فَسَّر العلماء فيما بعد سبب رغبته هذه هو كرهه لتخلف أهل زمانه لدرجة أنه لم يعد راغباً في البقاء بينهم حتى وهو ميت، لكن أحداً لم يستطع تفسير الاختفاء التام لتابوته وجسده أيضاً، فمن المعلوم أنه لا وجود الآن لضريح لهذه الشخصية في أي مكان من العالم ولو إدعاء[3]..."

(2) حدث تاريخي حقيقي.

(3) معلومة تاريخية صحيحة.

تسللت خيبة أمل ثقيلة إلى نفوس الحضور، فقد بدا حديث الدكتور يتجه إلى تفاصيل لا تُخْفَى على طالب السنة الأولى بأي كلية تاريخ، هنا قام الدكتور "علي" من وسط الحضور واستأذن في سؤال الدكتور "عبدالحق":

"آسف للمقاطعة يا دكتور لكننا جميعاً على علم تام بهذه التفاصيل ودور هذه الشخصية الاستثنائية في تطور الحياة البشرية، ألا يمكن أن تتجه مباشرة إلى هدفك؟"

ابتسم الدكتور "عبدالحق" ابتسامة عريضة ثم قال:

"حسناً ... أنا هو "ليوناردو دافينشي" " !!!

العَيِّنَة [1]

(1) نُشرت في ص 66 من العدد 7 ، السنة 2 الصادر بتاريخ 1999/06 من مجلة "العالِم" التي يصدرها "المركز الوطني للدراسات الاستيراتيجية" في السعودية.



"مهمتك هذه المرة ستكون مشوقة جداً ... إنها لصالح مختبرات كويكب سيريس[2]... "

لفظ كلماته هذه بمجرد أن وصلت إلى حافة منضدة مكتبه التي يحار الجميع كيف يحشر جثته الممتلئة خلفها، كان يرسم ا بتسامة متكلفة على شفتيه كمن يعلم مسبقاً عدم رغبتي في المهمة، في الواقع لم تكن لدي الرغبة في عمل أي شيء ذلك الصباح، منذ أن أفقت قررت ألا أخرج، فأمضيت النهار مسترخياً أتفرج على فقرات برنامج "قناة الكوكب الجديد"، لكن اقتحام رئيس العرفاء "عِزَّت" لشقتي ظهراً أفسد كل شيء، كانت الأوامر التي تلقاها هي ألا يعود بدوني، ولأنه عبد للواجب لم ينتبه إلى أنني أعلوه بثلاث رُتَب!

"... إن قسم التطور الذهني بهذا المعهد يحتاج عَيِّنَة حية مما كان يُعْرف بمرحلة العصر الحجري الحديث، ونظراً إلى أنك والملازم خبير "وضَّاح" من أكفأ ضباطي أوكلت لكما هذه المهمة"

هي إذاً ديباجته التقليدية التي يضعها حينما يريد أن يكلف أحداً من ضباط كتيبة الشرطة الزمنية بأسأم المهام، لكنه أحس

---

(2) قطره 940 كلم ويعد أكبر نحو 40,000 كويكب تدور ما بين المريخ والمشتري

بتأففي من حديثه فأسرع ينهيه قائلاً:

"من حسن الحظ أن مسرح المهمة هو محطة سفر وحدتنا ذاته، على أي حال ستجد كل التفاصيل في هذا القرص"

كانت المرة الأولى التي تُسْنَد لي مهمة لا تكون قبضاً على مجرم زمني، لكنني فهمت من تصفحي السريع لسجل المهمة على القرص أن العَيِّنَة المطلوبة - من الناحية العقلية - مماثلة في سلوكها للجانح باختلاف النية، وبالتالي فهي بحاجة إلى القوة والتحوط للحركات غير المتوقعة في التعامل معها.

سار كل شيء بشكل طبيعي، تحصلنا على ترخيص الانطلاق لمركبتنا، وحينما أغلق الملازم "وضّاح" بابه أشعلت المحرك ثم لقّمت التاريخ على لوحة الأرقام ليضغط "وضّاح" على زر الاندفاع، عندها بدأت المركبة تسارعها التدريجي الرتيب، وما هي إلا دقائق من السرعة الفائقة حتى دوى صوت اختراقنا لحاجز الزمن، لنجد نفسينا فجأة ننزلق وسط سهل أخضر شاسع جداً لا نراه إلا في مهامنا للماضي.

فتح "وضّاح" بابه ثم صرخ كمن كان يكبت فورة غضب جامحة:

"يا للهواء المنعش، حينما أتقاعد سأفكر في الاستقرار هنا"

ثم فرد ذراعيه لأقصى ما يستطيع وبلع كمية من الهواء بطريقة وكأنه سمع بقرب نفاده . لكنني كنت مشغولاً جداً بالطريقة التي سنحجز فيها العَيِّنَة، خصوصاً وأن آمرنا ركّز على ضرورة أن تكون ليس حية فقط وإنما سليمة كذلك من أي خدش

في الواقع لم نتعب كثيراً في البحث، فالمركبة كانت قد توقفت غير بعيدة عن مخيم نموذجي لمخيمات هذا العصر، يفصلنا عنه هضبة طبيعية رمادية، اقتربنا راجلين وبحذر شديد من المخيم ثم من الجانب الأيسر لأحد أكواخه، كان من الواضح وجود ما يشبه العائلة بداخله، يتجمعون حول مجموعة أعشاب وأحدهم يدق شيئاً بحجر حاد، ما هي إلا دقائق حتى رأينا شخصاً آخر يقترب من الكوخ خطوة خطوة.

نظرت إلى "وضَّاح" ونظر هو لي بعض ثواني، لكن "وضَّاح" بدأ الحديث:

"سيدي النقيب ما رأيك؟"

لفظ كلماته هذه وهو يسحب مسدسه بهدوء، لكنني أشرت إليه بالتزام الهدوء ثم قلت :

"أعتقد أن من موقعه هذا نضمن عدم تجمُّع الآخرين علينا، هيا فلننه الأمر ونعود"

في أقل من ثانية أصاب شعاع مسدس الملازم "وضَّاح" الرأس وخر الجسد على الأرض بسرعة

"أرجو ألا تكون السقطة قد أضرت به"

رد "وضَّاح" وهو يضع مسدسه في جرابه:

"لقد خففت قوة الحزمة إلى ما دون الحد الأدنى بقليل"

ما هي إلا دقائق حتى نجحنا في سحب الجسد برقة إلى

مركبتنا، وأنا أهم بغلق الباب ضحك "وضَّاح" قائلاً:

"ليت كل مهامنا بهذه السهولة"

لم نربط له حزام الأمان، مقتنعين بأن في ذلك محافظة على طبيعة العينة إلى أقصى حد طبقاً للتعليمات الصارمة التي تقتضيها مهمتنا، فتركناه يغط في نومه حراً، لكن حينما هممت بكتابة الرقم 3462 قرب كلمة "سنة" فوجئت بـ "وضَّاح" يمسك معصمي برفق ويقول:

"سيدي، إذا سمحت أرجو أن نَمُر أولاً على سنة 1968، لقد رغبت صديقتي في أن تحصل على صبَّارة"

سألته في استغراب:

"تحصل على ماذا؟"

"صبَّارة ... نوع نباتي صحراوي منقرض، إنها تـُلَمِّح لي منذ زمن أن إحضاري لها هذا النوع النباتي النادر هو الدليل الوحيد على عدم نسياني لها أثناء مهامي اليومية"

"وضَّاح، أنت تعلم أن قانون الشرطة الزمنية يحظر مثل هذه السلوكيات"

"لن يستغرق الأمر أكثر من 5 دقائق، إنني أعرف المكان جيداً يا سيدي، سنقف وأخرج لأقطف النبتة وأعود فوراً، ولا أعتقد أن القانون يمنع هدية شخصية يقل وزنها عن 20 وحدة!"

ولأنني أردت اختصار نقاش بدا لي غير مجدٍ ألقمت بسرعة

الأرقام 1968 بالقرب من كلمة سنة، ثم ألقمت "صحراء إفريقيا العليا" بالقرب من المكان وضغطت بعدها على زر الاندفاع، فبدأت المركبة تتسارع شيئاً فشيئاً، وما هي إلا دقائق من السرعة الفائقة حتى دوى صوت اختراقنا لحاجز الزمن، وانقلب ذلك البساط الأخضر الذي كنا فيه منذ لحظات إلى بحر من الرمال الصفراء ، ثم أشارت الأجهزة إلى أن الهواء في الخارج ساخن لحد الإزعاج، فتح "وضّاح" باب مركبتنا وقفز بخفة، ثم اتجه بخطوات وئيدة إلى إحدى النبتات التي كانت أعداد كثيرة منها تنتشر بتباعد على مد البصر، لونها أخضر لكن شكلها كان غريباً جداً علي، فهي المرة الأولى التي أرى فيها مثيلها، ظل بعض دقائق يفحص هذه النبتة وتلك، وبعد شيء من التردد قطف جزءاً بيضاوياً ذا شعر قاس جداً من إحداها ثم عاد مهرولاً.

"شكراً يا سيدي، ستسعد صديقتي جداً بهذه القطعة النادرة"

أغلق الباب واستغرق في تمعن ما جلب بابتسامة طفل صغير، فهممت بكتابة الرقم 3462 قرب كلمة "سنة"، لكنني قبل أن ألمس أي زر شعرت فجأة بدفعة قوية على ظهري جعلتني أصدم الزجاج الذي أمامي بقوة، فأظلمت الدنيا أمامي ولم أشعر بعد ذلك بشيء إلا ويد "وضّاح" تمسح جبهتي، ثم شاهدت شفتيه تتمتم بكلمات بالكاد استطعت سماعها، بعد دقائق أخرى شعرت بأن صوته صار أقوى، لقد بدأ وعيي يعود لي تدريجياً ولم أعرف حتى تلك اللحظة ماذا جرى لي.

"يجب أن تنهض يا سيدي، لقد هربت العَيِّنَـة"

بالكاد سمعت كلمات "وضَّاح" هذه، فصرخت لا شعورياً:

"اللعنة، وكيف حدث ذلك؟"

"يبدو أن جرعة المسدس لم تكن كافية، إن كل ذلك بسبب التعليمات الصارمة بشأن سلامة العَيِّنة"

"ألم تلحق به؟"

"عدوت خلفه سريعاً بمجرد أن دفعك بقوة من الخلف وقفز من العربة، حتى أنني لم أعرف أن دفعته جعلت رأسك يصدم الزجاج وتفقد وعيك، لقد عدوت وراءه بأقصى سرعة لكنني لم أتعود الجري على هذه الأرض الساخنة المتحركة، زلَّت رجلي وسقط مسدسي في التربة، وما أن وقفت ثانية ونظفت المسدس حتى اكتشفت أن العَيِّنة اختفت وراء تلك التلة"

شعرت بعرق بارد يتصبب من على جبهتي، فهذه المهمة التي لم أرغبها أصلاً والتي ظننتها انتهت ها هي تدخلنا متاهة زمنية لا أعلم نهايتها

"لا داعي لإضاعة الوقت، لننطلق إلى هناك فوراً راجلين"

و بعد بعض خطوات مرتبكة صاح "وضَّاح" فجأة:

"لحظة يا سيدي، ملابسنا، لا شك في أن شكلها الغريب عن هذا الزمن سيعيق مهمتنا، قد تتسبب في إرعاب هؤلاء البدائيين بلا سبب فنعقد المسائل، كما أن العينة ذاتها سيسهل عليها تمييزنا

عيسى يوسف اللموشي

وبالتالي كفاءة هروبها منا، أظن أنه يجب أن نعود بسرعة إلى زماننا، نغير ملابسنا وهي حتى فرصة لنحضر الأجهزة اللازمة لهذا البحث، أو... ما رأيك؟ لننساه، لنحضر عَيِّنَة أخرى من ذات المكان والزمان ونعود، أليس ذلك أسهل وأسرع؟"

هنا تيقنت من أن "وضَّاح" لم يدرك خطورة الموقف، فجاهدت في أن أفهمه المشكلة بكلمات مختصرة رغم أن هلعي حبس الكلمات في حلقي:

"يا حضرة الملازم الخبير، إذا لم نسرع في القبض عليه فإننا سنتسبب في حدوث ريكة زمنية قد تؤدي إلى تغير زمننا هذا الذي تود العودة إليه، قد لا نجده، وقد نختفي نحن ذاتنا نتيجة لذلك بعد بعض دقائق من الآن، أما حكاية الملابس فسندبر أمرها فيما بعد، دعنا الآن فقط ننجح في تحديد مكان هذه العيِّنة اللعينة قبل فوات الأوان"

بلع "وضَّاح" ريقه بذهول ثم شاهدت قطرات عرق تنمو على جبهته، ولأنني أعرف دقة الموقف هرولت بسرعة نحو المركبة ثم قدتها فوراً نحو التلَّة، حينما وصلناها رأيت ما يبدو قرية من خلفها، لقد شاهدنا سكانها فدب الرعب فيهم، كان منظراً مثيراً: مئات المئات يهربون منها متجهين خارجها جرياً في جميع الاتجاهات، حتى بدوا و كأنهم شمساً ترسل أشعتها"

ضحك "وضَّاح" هنا ثم قال:

"لعلهم ظنوا أننا إحدى الأطباق الطائرة القادمة من كوكب

بعيد، أتذكر أن هذا هو تفسير أهل هذا الزمان لكل جسم طائر يرونه غير مألوف لهم؟"

"بدلاً من المزاح، قل لي كيف سنتعرف على العَيِّنة وسط هذه الجموع الهائلة؟"

مرت بعض لحظات ونحن صامتين ومعلقين في الفضاء فوق القرية نتأمل هذا الموقف المرعب، يبدو واضحاً أنه من المستحيل معرفة العينة وسط كل هذه الجموع، فجأة ضرب "وضَّاح" قبضته اليمنى على راحة يده اليسرى وقال صائحاً:

"سيدي وجدتها، إن العَيِّنَة إما أن تتكيف مع وضعها الجديد وسيكون لها حينئذ مستقبلاً استثنائيا بحكم استثنائية وجودها في هذا العصر أو تموت بعد بعض أشهر، لذلك أقترح أن نزور الموقع في مستقبله القريب، بعد 30 سنة من الآن مثلاً ولنر إن كان بإمكاننا العثور على العَيِّنَـة بشكل واضح"

ولأنني كنت مضطرب الفكر، علمت أنني سأعجز عن إيجاد أي فكرة أخرى أصوب في هذا الزمن القصير، لذا ألقمت سريعاً الرقم 1998 بجانب كلمة سنة ثم ضغطت على زر الاندفاع، وما هي إلا دقائق حتى دوى صوت اختراقنا لحاجز الزمن، ثم لمحت من خلال الزجاج ذات القرية وقد تحولت إلى مدينة، صحيح في طور النمو إلا أنه بدا أنها تشتمل على أكثر من مرفق حضاري بدائي، فبعض الكلمات المضيئة تشير إلى مقهى وكلمات أخرى تشير إلى ما يبدو أنه

مطعم وكلمات أخرى أبعد تشير إلى نموذج بدائي للفندق

قطع تأملاتي "وضَّاح" بقوله:

"سيدي إننا متعبان، ما رأيك في ذلك الفندق، نغتسل ونستريح ثم نجد عربة من هذا الزمن نرى ما يمكن عمله بها؟"

رأيتها فكرة مناسبة، إلا أنني سألته:

"لكن بماذا نفسر ملابسنا؟"

صمت وضَّاح قليلاً ثم استدرك بسرعة قائلاً:

"إذا أثرنا أحد الفضوليين سنقول له إننا ذاهبين لتصوير فيلم، فيلم خيال علمي مثلاً، أعتقد أن مثل هذه الأفلام كانت متألقة في الماضي، أقصد الآن!"

ابتسمت قليلاً ثم أجبته قائلاً:

"إذا لم يقتنع أحد بهذه الحجة فلا أظننا سنجد وقتاً للتفكير في غيرها، هيا"

في الحجرة المزدوجة التي حجزناها في الفندق جهز "وضَّاح" لنفسه قدحاً من ذلك الشراب الأزلي: "القهوة" ثم التهى بالتنقل ما بين القنوات المحدودة لما كان يعرف بالتلفاز المركون في زاوية من الحجرة، بينما انشغلت في قراءة صحيفة ذلك المساء، لعلني أكتشف أي تغير زمني مفاجئ قد يعيننا في الوصول إلى العَيِّنَة، ولأنني سئمت من صوت التنقل السريع ما بين القنوات طلبت من "وضَّاح"

أن يتوقف على القناة المحلية، فقد يذاع خبر يفيدنا.

ا تضح لنا أن القنوات المحلية الثلاث تبث على الهواء مباشرة شخصاً يرتدي بذلة متميزة ويصرخ بحماس، ويُفْهَم من الكتابة القديمة المتدحرجة أفقياً على الحافة السفلية للشاشة أنه أعلى مسؤول هنا، يخطب في مناسبة محلية، ولأنني غير مولع بالخطب عدت أتصفح الصحيفة بملل، لكنني فوجئت بأن صورة هذا الخطيب ومقتطفات من أقواله منشورة في العديد من صفحات كل الصحف أمامي! غمغمت لـ "وضَّاح" قائلاً :

"يبدو أنه يسيطر جيداً على الأمور هنا"

لكنني قبل أن أكمل جملتي قبض "وضَّاح" فجأة على ساعدي بقوة وهزني حتى انفرطت صفحات الصحيفة من يدي وتناثرت على الأرض، وقبل أن أفهم ما أصابه صرخ في وجهي بتشنج غريب:

"سيدي ، انظر إلى الشاشة، تمعن جيداً في ملامح هذا الخطيب"

"حسناً يا وضَّاح، لم كل هذا التشنج؟ لا أراه خارق الوسامة على أي حال!"

"سيدي ... إنه ... إنه العَيِّنَـةَ!!!"

المُهَاجِر



"لكنك تتهرَّب دائماً من إجابة هذا السؤال يا أبي ولا أعرف لماذا"

حاول ألا يَظْهَر على وجهه أي ردة فعل حادة، فبالغ في إرخاء جسده على الكرسي الوثير الذي اختار له منذ زمن بعيد منتصف شرفة البيت الأمامية، ظل يتأمل لون السماء البنفسجي، ثم التفت إلى نُصب المدينة الشاهق الذي كان بيته المُحَلِّق يَلُفُّ حوله ببطء

"لم تُجِبْني على سؤالي يا أبي!"

لفظ الصغير كلماته بعصبية وهو يجثو يمين كرسيه محاولاً أن يسحبه من شروده ومُصِرّاً في قرارة نفسه على حسم الأمر هذا المساء

"قلت لك مراراً يا بني ألا تشغل ذهنك بما مضى، فَكِّر في اليوم، في الغد، لا تفكر فيما لا يعود أبداً"

لكن الصغير لم تعجبه هذه الإجابة، فغمغم بكلمات مُبْهمة بصوت خفيض ثم نهض بعصبية وتظاهر بمغادرته الشُّرْفة، وحينما صار ظهره مقابل والده سمعه يقول:

"كل فرد من أصدقائي يفتخر بأن له سجل عائلة مُسَجَّل فيه مآثر الحضارة التي ينتمون إليها، وصور مشاهيرهم، إلا أنا، لقد ملَّوا

الحديث عن والد جَدِّي، كلهم يعرفون أن هذا النصب أقيم في ذكراه كأعظم من خدم مدينتنا، لكن ماذا عن أقاربه هو؟ ماذا عن والده وجَدِّه؟ لماذا ترفض الحديث عنهم؟"

صمت لبعض دقائق تنهَّد فيها بعمق، تمعَّن لبعض دقائق أخرى في ثلاثي الشموس الصفراء والبرتقالية والحمراء التي تُرَصِّع السماء أمامه منذ ملايين السنين، وفي محاولة أخيره لِيُثْنِي الصغير عن الاسترسال في إلحاحه قال بصوت مرتفع وعيناه مازالتا معلقتين على الشموس:

"حسناً، هل يرضيك أن أقول لك إننا من سلالة ليس في ذكرها ما يُشَرِّف؟"

فوجئ الصغير بهذه الإجابة فجمد في مكانه، استدار ثم اقترب لا إرادياً من الشرفة وجلس شابكاً قدميه أسفل ركبتيه ببطء قرب كرسي والده، في المكان الذي كان يجلس فيه، ظل ينظر لوالده مشدوهاً عاجزاً عن الكلام، فإجابته القصيرة جداً جاءت مخالفة تماماً لكل توقعاته، نظر إلى الصغير وأحس بالصدمة التي أصابته، شعر بشيء من الندم إذ أنه لم يكن يرغب في خوض هذا الموضوع لهذا السبب، كان يود أن يُجَنِّبه إحساس المرارة هذا الذي صار كاسياً وجهه، حاول أن يُطيِّب خاطره فقال:

"لا أقصد تحطيم الصورة الجميلة التي تحملها لأجدادنا، لكن يؤسفني أن أقول لك بأنه ليس في سيرتهم ما يشعرك بالعزة التي تتوقعها، لذا تمنيت لو أنك لم تُشْغِل نفسك بأمرهم، تماماً مثلما فعل

والد جَدِّك وجَدِّك وأنا، يكفيك فخراً أنك من سلالة شخص كوالد جَدِّك العظيم"

ظل الصغير مطرقاً بصمت في مكانه، داعبت أصابع يده اليمنى أصابع قدمه اليسرى ببلاهة، شعر بشيء من الندم، تمنى لو لم يلح على والده بالسؤال لكنه كان يتمنى في قرارة نفسه لو أن يقول له والده بعد قليل إنه كان يمزح، أو على الأقل يبالغ، لكنه صار مدركاً أن الأمر لم يعد يحتمل الانتظار، لابد من المُضي إلى النهاية، لذا استجمع كل قواه وقال:

"لقد فتحت الجرح يا أبي، فلم لا تُرِحني وتجعل من هذا المساء مساء كشف الحقيقة؟"

أدرك أنه بالفعل لا فائدة من تَهَرُّبِهِ المستمر، ففكر لفترة قصيرة في أن هذا المقترح قد يساعده فعلاً في الخلاص من كابوس الذكرى الجاثم عليه دائماً، أخذ شهيقاً عميقاً وما هي إلا بعض دقائق حتى خرجت الكلمات من فمه وكأنها تنطلق من عمق كهف قديم:

"تعلم أن والد جَدِّك جاء كوكبنا هذا مهاجراً من كوكب آخر، لكن يؤسفني أن أقول لك إننا من سلالة فيه كان زادها اليومي الاقتتال، قتال بالعقول والألسن والأيدي وبأدوات متنوعة تم استنباطها فيما بعد ولم تتوقف عن التطور المذهل، كان هذا الاقتتال يحدث ما بين جميع أنواع كائنات الكوكب، لكن بزعامة نوع يعتقد أنه الأقوى لأنه الأعقل! كنت تجد قتالاً ما ينشب في مكان ما بمجرد

أن يخمد قتال آخر قبله، تعددت الأسباب والنتيجة واحدة: دمار، موتى بالآلاف، ومقابر جديدة تُحْفَر دائماً، ليس غريباً أن بيَّنت الأبحاث العلمية أن هؤلاء الذين يزعمون التعقُّل كانوا أبناء عمومة الكائنات التي كانت تعيش معهم جنباً إلى جنب والتي يُسَمُّونَها غير عاقلة أو غير ذكية، في الواقع كانت بالفعل أقل حجماً منهم وأبشع، يأكلون لحومها ويشربون سوائل جسدها ويستغلون طاقتها الحيوية بأبشع الوسائل دون رغبتها، بل تجد من يحبسها لمجرد الاستمتاع بالتفرج عليها، ورغم أن الكثيرين منهم أنكر بشدة حقيقة قرابته بها إلا أنه كان من المفترض أن تستنكر هي هذه القرابة! فكم من إثباتات بيَّنت أنها أكثر تنظيماً وإخلاصاً ونظافة للبيئة وأمانة منهم، بل وحتى أكثر نجاحاً في إدارة حياتها منهم"

مسح براحة كَفِّه قطرات من العرق تجَّمعت على جبينه ثم أكمل قائلاً وعيناه مازالتا معلقتين في السماء:

"وكأن الزعم بتفوقهم على سائر الكائنات الأخرى لا يكفي كان بعضهم يَدَّعي أنه أكثر تطوراً من أفراد نوعه ذاته، ولو ذكرت لك معايير الرقي هذه التي كانوا يستندون عليها لاعتقدتني مبالغاً ، كان بعضهم يعتمد لون أجسادهم كعلامة للتفوق، ثم تُفاجأ بأن يدَّعي بعض ذوي اللون الواحد أنهم أرقى من الباقين من ذات لونهم، ومعيارهم هذه المرة طريقة تَحَدُّثِهم أو حدث تاريخي قديم قام به أحد أجدادهم أو حتى معتقد من معتَقدات ما وراء الطبيعة، أما وسيلة إثباتهم لمزاعمهم الواهية هذه فقد كانت واحدة دائماً: الاقتتال،

والاقتتال حتى الموت، كم من فئة أبادت أخرى حتى الانقراض، لتباد هي الأخرى على يد فئة أخرى أقوى منها، حتى كوكبهم لم يسلم من التنكيل، لقد لوَّثوه، هل تتصور عاقلاً يعمد إلى تلويث الهواء الذي يتنفسه لحد فساده بدعوى التحضر ثم يبذل الكثير من الجهود بعد ذلك لتنقيته؟ هل يكون عاقلاً من يُبِيد كائنات حية على الرغم من بدائيتها كان بإمكانها إصلاح ما أفسده كجزء من دورة حياتها الطبيعية، فقط لو أعطاها الفرصة لذلك بتركها وشأنها؟ هل تصدق أن هناك كائنات حية في هذا الكون تعمد إلى تدمير سطح كوكبها بوسائل لا تجعله صالحاً أبداً للحياة بدعوى التقدم والدفاع عن الحرية والبحث عن السعادة؟"

بلع الصغير ريقه، كان يسمع كلاماً عجباً لقوم لم يكن يتوقع وجودهم أصلاً في هذا الكون الجميل، تخيَّل رعب الحياة التي كانوا يعيشونها فشعر برجفة، لكنه أحس بضرورة أن يتحصل على إجابة لسؤال كان يلح عليه منذ بداية حديث والده، لذا بمجرد أن أخذ والده شهيقاً عميقاً حتى سارع يسأله:

"وهل ترى سبباً ... لكل هذا؟"

شبك قدميه فوق بعضهما وحملق قليلاً في لمعان قمة النصب الذي اقترب البيت كثيراً منه في تلك اللحظة ثم قال:

"ربما تلك العزلة الكونية الحادة التي عانى منها هؤلاء، كانوا في الواقع يعيشون مكاناً منعزلاً جداً من هذا الكون، طوال آلاف

السنين كانوا يتوالدون ويموتون دون أن يتصوروا أن هناك غيرهم في هذا الكون، لم ينجحوا في الخروج خارج كوكبهم إلى الكواكب القريبة منه إلا بعد مئات آلاف السنين، لكنهم - ولمئات السنين الأخرى - لم ينجحوا في الخروج خارج كواكب شمسهم، التي لم يفلحوا في اكتشاف أي نوع حي عليها، وعلى الرغم من نجاحهم في إنشاء مستوطنات عديدة عليها إلا أنهم لم ينجحوا أبداً في الاتصال بأي حضارة أخرى، في الواقع علموا متأخرين أن تلك المركبات الغامضة التي كانت تحوم فوق رؤوسهم هي بعثات استكشافية منا، أقصد من كوكبنا هذا، تلك البعثات اكتشفت أن شدة تخلفهم الحضاري لا يؤهلهم لتفهُّم أخلاقيات التعايش السلمي مع شعوب حضارات أخرى فقرروا إهمال فتح أي علائق مباشرة معهم، وقررت الحضارات القريبة الأخرى ذات القرار لذات السبب، فعاشوا منبوذين من قبل الجميع، فإذا كانوا قد عجزوا عن التعايش مع أفراد ذات نوعهم، واستعبدوا أقربائهم من السلالات الأخرى شر استعباد، ودمروا كوكبهم الذي ليس لهم سواه كيف يمكنهم العيش مع كائنات أخرى هي بالرغم من تطورها أقل منهم حجماً ودميمة أو حتى مضحكة في نظرهم؟"

توقف عن الحديث لبعض دقائق مستغرقاً في ذكريات أليمة يفكر كيف يمكن أن يرويها بطريقة تقلل من قباحتها، استثمر الصغير هذه الفرصة فأسرع يسأله:

"أبي، لم تقل لي من أي نوع كان أجدادنا من بين كل هذه الأنواع؟"

نظـر إلى السـماء مـرة أخـرى، وبيـنما كـان قـرص الشـمس البرتقالية يصغر شيئاً فشيئاً وكأنه يتقهقر قال:

"إننا طبعاً من النوع الذي يَدَّعي أنه الأعقل!"

صمت الصغير نهائياً، تململ في جلسته وكأنه لم يعد راغباً في الاستماع إلى المزيد، أيعقل أن يخبر أصدقاءه بكل هذه البشاعة؟ وكأنه شعر بما يدور في رأس الصغير التفت إليه وقال له بهدوء:

"لكن والد جَدِّك كان مختلفاً كثيراً عنهم طبعاً، لقد أراحنا من كل هذه المآسي التي كنا لنعيشها لولاه، فلأنه كان رافضاً تماماً لواقعه المرير هذا - لخلل مُوَرِّثي في جسده كما يقول أهله! - فر من كوكبه نصف المدمر أثناء انشغال الجميع بآخر حرب عالمية كانت تدور رحاها في كل ركن فيه، كان مُجَنَّد إجباري كأي ساكن آخر في كوكبه، لكن لأنه مُجَنَّد قديم اشتهر بطاعته للأوامر ورصانته أُلْحِق بكتيبة حرس الحدود التي كانـت وحداتهـا تـتوزع مـا بـين كواكـب شمسـهم، فالسـفر مـا بـين مستوطنات هذه الكواكب لم يكن سهلاً، لقد حدَّد أقوياؤهم هذا السفر بشكل صارم لدرجة أن جعلوه ينتهي بالموت السريع على يدي أحد حرس الحدود لمن لا يحمل تصريحاً واضحاً، كانوا يحرصون على تحديد السفر لأن هروب المُجَنَّدين من معاركهم التي لا تنتهي يعني إضعاف كبير لقوتهم القتالية، لذا وزَّعوا بعناية فائقة حرس الحدود في مواقع متفرقة وأعطوهم كافة الصلاحيات، وفي يوم مشهود، وبينما كان جَدِّي يقوم بجولته التفتيشية التقليدية بصحبة جَدَّتي سراً نجح في خداع

آمره وكافة زملائه وانطلق بسرعة خارقة نحو أقرب النجوم إليه، ذلك ثلاثي الشموس، لم يفكر للحظة في الالتفات خلفه، وقد قرر ألا يفعل ذلك مهما كان السبب، وبعد رحلة سريعة طويلة مليئة بالخوف اختار كوكبنا هذا بالذات ليحط عليه، فاكتشف منذ تلك اللحظة كم كان تعيساً في الوقت الذي كانت هناك عوالم أخرى تعيش الاستقرار والسعادة رغم أن أفرادها كانوا من أجناس عديدة قَدِمَت من كواكب وحضارات مختلفة، فيها حتى النُسَخ والمشوَّهين والآليين، منذ تلك اللحظة قرر أن يعوِّض كل سنوات عمره التي ضاعت في القتل والشر والتدمير، كرَّس عمره المتبقي في ترسيخ مشاريع خير أو المساهمة في أعمال جبارة تُسْعِد الآخرين، كرَّس كل علومه وخبرته من أجل ذلك، ولولاه ما صارت مدينتنا على ما هي عليه الآن من استقرار وجمال وأمان وسعادة، باختصار هو من خلق حياة هذه المدينة"

غمغم الصغير بصوت خفيض وكأنه يُحَدِّث نفسه:

"فهمت الآن سبب وجود هذا النُصب!"

ظل سؤال أخير يلح في ذهنه فلم يجد أفضل منه ليختم به هذا الحديث المأساوي:

"تَبقَّى أمر واحد يا أبي: أي كوكب مخيف هذا الذي عاش فيه أجدادنا؟ هل يبعد كثيراً؟"

"لا، في الواقع هو أحد كواكب أقرب النجوم إلينا، إن شئت الدقة ثالث كوكب يدور حوله، ذلك الذي يسميه أهله ... ... "الأرض"!

سِر قُرْصَان



شعرت بـِرَجْفة تسري في كامل جسدي، فبعد بعض دقائق من التجوال العشوائي ما بين الكويكبات ها أنا أمام لجنة الاستقبال: سِرب من المركبات يظهر فجأة أمامي من لا مكان، تتناسب تماماً ومهام الاختطاف: ما يقارب الـ 10 إجاصات حمراء قانية، صغيرة لدرجة بالكاد تتسع لراكبها، اقتربت إحداها مني رويداً رويداً، قامت بأكثر من دورة حول مركبتي أفقياً وعمودياً جاعلة من مركبتي مركز كرةٍ وهمية ، كان قطر كل دورة أقل من قطر الدورة التي سبقتها، كان واضحاً أن صاحب هذه المركبة قصد بدوراته المتكررة "جس مركبتي" بغرض تحديد شحنتها، لكنه بذلك سهَّل علي كثيراً مهمة تخمين هويته، كان يظهر بوضوح على مقدمة مركبته أسفل النافذة رمز القرصنة التاريخي: جمجمة بيضاء يتقاطع وراءها عظمتي فخذ بيضاء!

لم تتوقف هذه الإجاصة عن الدوران حولي إلى أن صارت المسافة بينها وبين مركبتي أقل من متر أرضي، من قُبَّتها الشفافة بدا لي بوضوح أن سائقها مُقَنَّع بإتقان، وجهه مغطى بخوذة تلف رأسه وكأنها نُحِتَت من بيضة سوداء معدنية، لا يظهر منها إلا قبتين شفافتين صغيرتين تغطيان فتحتي العينين، على جبينه علامة القرصنة بلون أبيض، أي اللون الوحيد الآخر في كامل لباسه المعتم!

"لا تحاول المقاومة وإلا دمرت مركبتك فوراً! أطفئ محركك وخذ وضع الاستعداد للخروج"

جاءت هذه الكلمات بصوت أجش قوي من خلال سماعتي خوذتي، فسارعت بتطبيق التعليمات، لكن ما لم يكن يعلمه هو أنني ما جئت لمقاومته وإنما لتنفيذ مهمته بالضبط: اختطافي! ولأنه لم يسألني عن هويتي ولا عن مهمتي رأيت ضرورة أن أوضح له ذلك، رغم علمي بأن مصيري هو الاختطاف في آخر المطاف!:

"أريد فقط أن أُعْلِمُك بأنني أعزل وما جئت للقتال، كما لا أحمل أي شحنة من أي معدن، ثميناً كان أم بخساً ، إنني صحفي من قناة "عبر الكواكب" الإخبارية، وأرغب في إجراء مقابلة مع القرصان شخصياً لحساب قناتي"

انتظرت رداً لكنه لم يكن سوى ضحكة هازئة ثم الصمت! لا شك في أنه شعر بخيبة أمل لأنني لا أحمل شيئاً ثميناً، ويبدو أنه تأكد من أنني لا أحمل سلاحاً فأشار لي بيده أن أتبعه، ما هي إلا لحظات حتى انطلق يأكل الفضاء أمامه متجهاً نحو سرب مركبات زملائه، حينما وصلنا إليها أحاطت المركبات الـ10 بي كما يحيط السوار بالمعصم، ثم أمرني قائدهم بأن أظل وسطهم أتبعهم حرفياً و إلا أحرقوا مركبتي فوراً، انطلقنا جميعاً بعدها نمخر الفضاء ما بين الكويكبات بمهارة فائقة، في كل مرة يقتربون من كويكب . أظنه وكر القرصان . يتفادونه بسرعة، تارة بالانعطاف يميناً و تارة بالانعطاف

يساراً وتارة بالطيران فوقه وتارة بالطيران أسفله. كانت المركبات تقترب من مجال بعض الكويكبات كثيراً حتى إنني كنت ألمح أحياناً بعض الأبنية والمستوطنات على سطوحها، ولا أعلم ما إذا كانت بقايا المستوطنات الأرضية الأولى قبل أن يهجرها أهلها هرباً من القرصان أم أنها أوكاره السرية

ما هي إلا دقائق أخرى حتى اقتربنا من سطح كويكب كبير الحجم، توقف السرب على ارتفاع 200 متر تقريباً من سطح الكويكب، كان جوه مظلماً تماماً، أما سماؤه فهي سماء الألف قمر كما وصفها شاعر من قدامى مستوطني هذه المنطقة، جاء وقوفنا فوق قبة عظيمة غطَّت بعناية إحدى حفر النيازك الضخمة التي يزخر بها سطح الكويكب، أثناء حومان باقي المركبات في الجو سمعت صوتاً يأمرني بتتبع مركبة القيادة وهي تتجه نحو باب ضخم فتح تلقائياً في سقف القبة الضخمة، دخلت المركبة أمامي في الفتحة ووجدت نفسي مضطراً لتتبعها، شعرت بشيء من الرهبة، فبعد أن دخلت وجدت أن المركبة أمامي تتوغل بسرعة في ممر مظلم تماماً، بعد دقائق ظهر لي من بعيد بقعة ضوء ناري، كبُرَت هذه البقعة شيئاً فشيئاً حتى اتضح لي أنها باب تضئ حوافه بطريقة غريبة، ما أن اقتربنا منه حتى فتح عن آخره، قال مرافقي بصوت أجش خفيض و بلغة رسمية بالكاد فهمتها:

"ستبقى في جناح الضيوف هذا إلى أن يقرر السيد ما يراه مناسباً"

ابتعدت مركبته عن الباب فدخلته بمركبتي لينغلق بفظاظة خلفي، تجوَّلت عَينايَّ جناح الضيوف هذا وياله من جناح! صالة فسيحة جداً كأنها فقاعة ضخمة حُبِسَت وسط الصخر، جدرانها صخرية بُنِّية خشنة غير صقيلة تلمع بشكل غريب، تتخللها عدة فتحات ضخمة مظلمة كأنها مداخل لسراديب لا نهاية لها، لا ترى هنا وهناك سوى تجهيزات وتمديدات التدفئة وتثبيت الجاذبية، هبطت بمركبتي على الأرض ثم نزلت منها وتمشيت قليلاً، اصطدمت رجلي بشيء ما، إنها عظمة! كانت الأرض متربة وتمتلئ ببعض البقايا البشرية: عظام، أدوات أكل عتيقة، أشلاء ملابس، ابتسمت للحظة، لو كنت عالم آثار لسعدت جداً بتمضية بعض الوقت هنا!

شعرت بشيء من التعب فانسحبت إلى أقصى الجدار وجلست، أسندت ظهري للجدار فاكتشفت أنه دافئ وناعم بخلاف ما يبدو، شبكت قدميَّ فوق بعضهما وهما ممددتان باستقامة، ثم وضعت يديَّ في حِجْري، لم لا أغفو قليلاً؟ لا شك في أنني سأحتاج إلى أقصى طاقتي وتركيزي الذهني في الساعات القليلة القادمة، ما أن أغلقت جفني حتى تذكرت ما قاله لي مدير القناة حينما ودَّعني أمام باب مركبتي:

"إذا نجحت فسيذكرك التاريخ بأنك ذلك الصحفي الناشئ الذي نجح في إصابة سبق القرن الصحفي"

لكن الآن وأنا في قبضته هل سيذكر التاريخ أنني أكثر

ضحاياه سذاجة؟ لأنني الوحيد من وقع بين يديه برغبته؟ إن ما يُعَزِّي نفسي ليس المكافأة الباهظة التي رصدتها لي القناة في حالة نجاح مهمتي وإنما لأنني سأكون أول من يرى وجه "القرصان". فما عاد أحد من ضحاياه ليخبرنا بِشكل ملامحه!

في الواقع لم تسلم أي من الشركات العاملة على استثمار مناجم أقمار زحل العابرة سفنها طريق زحل/المريخ من أن تُخْتَطَف إحدى سفنها بكامل شحنتها وسط زحام الكويكبات، ومع ذلك لم تستطع أي من وحدات شرطة المريخ ولا حتى قوات الدعم المركزي الأرضية من أن توقف المختطف عند حده، بل من المضحك هو أنه رغم كل الإمكانيات الضخمة لم تستطع هذه القوات حتى تحديد هويته أو التعرف على وجهه، ولا حتى أن تقبض على أحد رجاله، كل ما استطاعت فعله هو تسميته بالقرصان، قد لا يكون ذلك غريباً حينما نعلم أن لا مقر ثابت له، ليلة على هذا الكويكب وأخرى على ذاك، كما أن رجاله يعيشون موزعين ما بين هذه الكويكبات، وكذلك ثروته، وإذا كان دخول هذه المنطقة هو في حد ذاته خطر محدق، فمن أين لأي وحدة شرطة الوقت الكافي لتحديد الكويكب الذي يستقر فيه من بين 40.000 كويكباً في اللحظة التي تدخل فيها المنطقة؟ وحتى ولو قُبِضَ عليه وكل رجاله بجيش جَرَّار هل يمكنهم أن يجدوا الوقت الكافي لينقبوا كل شبر من سطح هذه الكويكبات الـ 40.000 ؟ لقد أصاب هذا الرجل في اختيار مكان عمله!

مضت ساعتان وأنا مرمي بداخل هذا الكهف اعتقدت أنهما

يومان أرضيان، على أي حال مازال الوقت مبكراً للتشاؤم، فمن غير المعقول أن يستقبلني "القرصان" بمجرد أن أصل، فجأة فتح الباب وظهر رجل بذات لباس من رماني هنا، دخل الغرفة طائراً بحزام الطيران الذي يتمنطقه برفقة شخص آخر يرتدي ذات البذلة، إلا أنها أكثر ترفاً، كانت علامة الجمجمة على الخوذة أكبر وتضيء بلون بنفسجي غريب، دق قلبي بعنف شديد وهتفت بيني وبين نفسي: "هل حانت لحظة اللقاء؟ أم الموت؟"، أومأ لمرافقه بحركة حازمة من يده اليسرى بأن يتركنا لوحدنا، بعد أن غادر اقترب من صخرة تنتأ من الأرض أمامي تبعد عني بعض خطوات، جلس عليها جلسة عسكرية قديمة ثم مسك بكَفِّه الأيسر معصم يده اليمنى بهدوء بعد أن شكَّل بيديه دائرة تحيط بحافة ركبتي رجليه المنثنيتين، ظل دقيقة يتأملني بصمت ثم قال بصوت غليظ واثق:

"قيل لي إنك صحفي"

أجبته سريعاً:

"نعم، وأظن أن رجالك تأكدوا من أن مركبتي لا تحمل شيئاً سوى آلة تسجيل المقابلات الصحفية"

لم يجب، صمت، ثم أطرق برأسه إلى حِجْرِه وهو في ذات جلسته العسكرية، بعد دقائق رفع رأسه ثم نزع خوذَته تماماً بكلتا يديه، بدا لي شديد البياض أخضر العينين ووسيماً جداً، نظر في عيني مباشرة ثم قال بصوت هادئ واثق:

"لماذا تريد إجراء مقابلة مع القُرصان؟"

وكأنني كنت أنتظر مثل هذا السؤال أجبته بلهفة:

"سئمت تلك المقابلات الهزيلة التي أُرْسَل لها، تارة مع عامل منجم وتارة مع قائد مركبة ضلَّ طريقه، إنني ما التحقت بقناة "عبر الكواكب" الإخبارية إلا لإحساسي بأن العمل الصحفي هو طرح موضوعي لقضايا الساعة، ولا حديث في هذه الأيام إلا عن القرصان، لذا رأيت أن مقابلته قد تساعد في أن يفهم الناس أكثر القرصان، كما قد تساعد القرصان في أن يوصل ما يريد قوله للمسؤولين، وكذلك لعائلات ضحاياه الذين لا يعرفون مصير أقاربهم منذ اختطافهم"

ضحك ضحكة هازئة ثم قال:

"ضحاياه؟ ألا تعلم أنهم رجاله الآن؟"

فوجئت بهذا الرد، فأضفت بسرعة:

"جعلهم عبيده إذاً؟"

"قلت لك رجالي، ولم أقل عبيدي!"

بلعت ريقي في هذه اللحظة وتصبب عرق بارد من جبهتي، إنها زَلَّة لسان كشفت عن حقيقة هذا الرجل، هو القرصان شخصياً إذاً، كنت اعتقده قبيحاً هزيلاً، فإذا به وسيم، ذو جسد رياضي، طويل القامة، عيناه الخضراوان تشعان ذكاءً حاداً، ما تصوَّرت القرصان هكذا! وبما أنني أمام هدفي التاريخي الآن لم لا أبدأ عملي؟

استجمعت قواي وتركيزي ثم طرحت عليه أول أسئلة مقابلتي دون حتى أن آخذ منه إذناً بذلك:

"هل يمكنني أن أعرف سبب كل هذا الرعب الذي تذيقه للناس؟"

تنهَّد ثم قال:

"وهل فعلت شيئاً بعد؟ ليست سوى البداية! لا أريد أموالهم في الواقع، كل ما أريده هو توزيع ما في قلبي من احتقار لهم، سأريهم ما يفعله ما يسمونه الإنسان الوضيع"

"ولماذا كل هذا الكره؟"

"البادئ أظلم كما يقال، أتعلم أنه لم يخطر في بالي أبداً أن تتحول حياتي بهذا الشكل وأصير مصدر الرعب الأول في هذا المكان من الكون؟ أتعلم أنني كنت أعمل بكد وصمت دون أن أخالف أي أمر؟"

صمت للحظات وكأنه سبح بعيداً عن الفجوة التي نتكوم وسطها، تنهد بعمق مرة أخرى ثم قال:

"هذا لا يعني أن رؤسائي كانوا يعاملونني باحترام، لكنني لم أكن أتذمر، لقد أفهموني أن هذا هو هدفي الأول والنهائي من الحياة وسر وسبب وجودي فيها: العمل في المنجم الذي ما عرفت غيره، ومع ذلك كنت أجتهد بصمت رغم العرق الذي يتصبب مني بغزارة ونظرات التحقير التي كنت أراها دائماً في عيونهم والتي لم أستطع

فهمها في ذلك الوقت، لا أعلم لم يحتقرون إنساناً يخدمهم بإخلاص، وكيف يسمحون لأنفسهم بأن يدَّعون التحضر وهم يعاملون أخاهم الإنسان وكأنه حيوان؟ ذلك الكائن الذي أراحته البشرية منذ أكثر من قرن من العمل المجهد، أفتنقله إلى إنسان آخر؟"

ترَكَت يده اليسرى معصم يده اليمنى ثم قلَّبت أصابعها التربة بجانبه وكأنه يبحث عن شيء سقط منه، بعد دقائق من التقليب قال بصوت منخفض وكأنه يحادث نفسه وعيناه مازالتا مركزتين على حركة يده:

"لم نكن نعرف معنى للأبوة أو الأمومة، ولا الأخوة ولا حتى الصداقة، عمل مجهد طوال اليوم لا أكثر، والويل لمن يلمِّح إلى تقصير رؤسائه في العمل أو أخطائهم فيه"

توقفت يده عن العبث بالتربة ثم رفع رأسه و نظر في عيني ثم قال:

"أتعرف ماذا اكتشفت مع الوقت؟ اكتشفت أنها ليست معاناتي لوحدي، كان هناك الكثيرون مثلي يعانون في صمت من العمل المجهد والاحتقار بما لا يتكافأ وجهدهم الإيجابي البريء ودون أن يتفهَّموا السبب مثلي"

فجأة نهض ووقف على رجليه، نفَّض يده اليسرى على فخذه الأيسر ثم استدار خلفه ومشى بعض خطوات، توقف ثم استدار مرة أخرى ومشى بعض خطوات أخرى حتى صارت المسافة بيني وبينه لا تتعدى الخطوة الواحدة، هنا انخفض بثني ركبتيه حتى صار وجهه

لا يبعد سوى ذراع عن وجهي ثم قال:

"إنك ترى جسمي مفتول بشكل مخالف لأبناء البشر اليوم، لم يأت ذلك برغبتي على أي حال، إنه دليل على ما دفعته غالياً من صحتي وراحتي في سبيلكم أنتم"

ثم أشار بسبابته اليمنى بعنف نحو وجهي حتى ظننت أنه يود فقأ عيني فتنحَّيت لا شعورياً نحو جهتي اليسرى، إلا أنها لم تكن سوى حركة عصبية عشوائية منه، نهض مرة أخرى، وشبك ذراعية أمام صدره، لكنه لم يتزحزح خطوة واحدة، ظل واقفاً في ذات مكانه يحدق بي فترة قصيرة ثم قال:

"لكن المشكلة هي أنكم أغبياء على عكس ما تتصورون، لم يخطر في ذهنكم أن ينقلب السحر على الساحر، لم تتصوروا أننا سنكتشف الخديعة يوماً ما، كنتم تعتقدون أنكم ضمنتم استحالة ذلك حينما اخترتم أناساً منخفضي الذكاء منذ البداية فلا يسمح ذكاؤهم المتدني باكتشاف الأمر، لكنكم تناسيتم في غمرة غروركم أن بعض الشركات قد لا تتقيد سراً بهذا الشرط للرفع من كفاءة إنتاجها وكسر المنافسة، كما أنكم لم تتصوروا أن المعاناة المستمرة يمكنها أن تشحذ العقل، يبدو أنه لم يقل لكم أحد ماذا يحدث للقط حينما تحصره في زاوية ما بعد أن تطارده لحد اللهاث! وكيف ستعرفون ذلك طالما أن القط هو إحدى الكائنات التي أبدتموها؟"

التِفت وراءه ثم ابتعد عني بخطوات ثقيلة وذراعيه مازالتا

متشابكتين فوق صدره، حينما وصل الصخرة التي كان يجلس عليها ركلها مرتين بمشط قدمه اليمنى ثم جلس عليها ووجهه قبالتي، بعد لحظات أخرى صامتة قال:

"حينما اكتشفت الحقيقة ذهلت في البداية، ظللت أشهراً فاراً هائماً على وجهي، وفي لحظة صراحة مع نفسي قررت عدم العيش في هذا العالم الذي يعامل بعض البشر وكأنهم آلة، ثم يطلب منهم أن يعاملوه كإنسان! يا للغباء! لكنني اكتشفت بعد ذلك أن الكثيرين مثلي فرّوا من هذا العمل المجهد بعد اكتشافهم الحقيقة، لذا جمعتهم وعرضت عليهم أن نتكتل معاً لنكون شيئاً ما لأنفسنا للمرة الأولى في حياتنا، وطالما أننا جميعاً لم نعرف غير الكويكبات عالماً للعيش قررنا أن تكون عالمنا الخاص بنا، وحدنا دون غيرنا، أما ثرواتها فقد أدركنا جميعاً بأننا أحق البشر بها"

كان وجهه يقدح بشرٍ غريب، وعيناه حمراوان ثم بدأ يلهث، لكنه بدا كمن لم يفقد شهوة الحديث بعد، لذا أكمل بذات الحنق قائلاً:

"قررت منذ تلك اللحظة أن أريكم كيف أننا أرقى منكم، ليس أرقى فقط و إنما الأذكى، قررنا أن نثبت لكم أننا حتى أحق بالحياة منكم طالما أننا أقوى وأكثر صموداً منكم، من المضحك أنني نجحت في ضم عدد كبير ممن أتوا للقبض علي من رجال شرطتكم، فالغرور الذي أصابكم جعلكم تعتقدون أنهم يمكنهم أن يقفوا معكم ضد من يعاني ذات معاناتهم الجسدية والنفسية، كما أن عدداً من سائقي عربات المناجم التي استوليت عليها صاروا من رجالي المخلصين عن

طيب خاطر لا لشيء إلا لاقتناعهم بعدالة قضيتنا"

هدأ قليلاً فأحسست بأهمية أن أستثمر الفرصة لأطرح عليه سؤالاً وددت منذ فترة أن أطرحه عليه لولا أن حديثه المتواصل لم يترك لي الفرصة لذلك:

"سيدي، أتفهَّم تماماً معاناتك وآلام الظلم الذي وقع عليك، لكن لماذا لم تلتجئ إلى القانون؟"

"القانون؟ أضحكتني يا بني، إن القانون بعيد جداً عن هذه المغارات الموحشة، وحتى لو التجأت إليه فإنه لن يلتفت إلى إنسان لم يُصْنَع إلا للعمل المضني، هذا القانون الذي تتحدث عنه لم يوضع لنا، صدقني، لن يستفيد أحد من وقوفه إلى جانبنا"

"لنفترض أن بعض رجال القانون كانوا متواطئين، أين نقاباتكم؟ لماذا لم تتحرك؟ أليست مُشَكَّلة خصيصاً لهذا الغرض؟"

هنا صرخ في وجهي بعصبية وقوة قائلاً:

"ومن قال لك إن النفايات مسموح لها أصلاً بتشكيل النقابات؟"

"لا عفواً ... اسمح لي هنا يا سيدي ... أعتقد أنك تبالغ قليلاً ... إن النقابات العمالية ليست فقط أقدم تقليد نقابي بشري بل هي النشاط الرئيس الآن في كافة المستعمرات الصناعية في هذه المنطقة النائية من مجموعتنا الشمسية، فلماذا لا يحق لكم تشكيل نقابات؟"

"ألم تفهم بعد يا صغيري؟ إننا نُسَخْ ... نُسَخ بشرية حقيرة!!!"

قُصاصَةُ زَمَنٍ [1]

(1) نُشِرت على جزأين في مجلة "المجرَّة" التي يصدرها "النادي العلمي الكويتي"، الجزء الأول في العدد 188 الصادر في يونيو 1998 ص 12 والثاني في العدد 189 الصادر في يوليو 1998 ص 20.



"لقد أتعبنا هذا العجوز، لم يترك لنا أي وسيلة مُتقدِّمة للاتصال به ... "

لفظت "مُنْتَهى" جملتها هذه دون أن تحوِّل عينيها عن النافذة أمامها، كانت بالكاد تمسك بأداة الملاحة من شدة التعب محاولة لمح الكويكب "كيوبي1" الأحمر[2] بالعين المجردة ، لا لأنه الحد الخارجي الرسمي للمجموعة الشمسية وإنما لأنه الهدف النهائي من رحلتها، كانت مركبتها تأكل الطريق بسرعة خارقة، بينما المنظر المطل من النافذة أمامها مثيرٌ للسأم، مُجرَّد ظُلْمة حالكة تحيط بها من جميع الجهات، تخترقها من حين لآخر بضع أذناب شُهُب تمر كالبرق، قطع هذا الصمت زميلها "هاشم" الجالس على المقعد المجاور والوحيد الآخر في المركبة بقوله:

"تصَوَّري مازال أمامنا عشر دقائق مُمِلة بكاملها؟"

أجاب "هاشم" وهو يقبض على كوبه المملوء بسحابة كثيفة

---

(2) QB1: قطره ما بين 200 و250 كلم، يتكون سطحه من مادة حمراء تتوفر في المُرَكِّبات العضوية، إكتُشِف سنة 1992 بداخل ما يعرف باسم "حزام كويبر" الذي يحيط بمدار آخر كواكب مجموعتنا "بلوتو" والمليء بآلاف الكويكبات الأصغر المشابهة له

من غاز شَروب[3]:

"وقت طويل، إلا أنه يجب أن نسعد بأنه ترك لنا على الأقل هذه الوسيلة البدائية للاتصال به في منفاه الطوعي هذا"

استمرت بعد ذلك تُحَدِّق في الفراغ المظلم والأرقام المُضيئة أمامها، بعد دقائق، ودون أن تلتفت قالت بنبرة تخلو من أي تفاؤل:

"لو تعذَّر علينا لقاء العجوز فلا شك في أن رحلة العودة ستكون مرهقة"

أجاب "هاشم" وهو لا يزال يقبض على كوبه:

"إنكِ مُتَذَمِّرة لأنك لم تتعودي مثل هذه الأسفار التقليدية"

رمقت "مُنْتَهى" زميلها بنظرة جانبية غاضبة لبعض لحظات ثم قالت:

"من يسمعك يظنك رَحَّالة عريقاً ، لا تصل مكاناً حتى تنطلق لغيره"

اعتدل "هاشم" في جلسته ثم ابتسم ابتسامة من كان ينتظر هذا السؤال ثم قال:

"لست جَوَّالا، لكنني أتبع نصائح جَدِّي بحذافيرها"

"وماذا قال جَدُّك في هذا الشأن؟"

---

(3) أي قابل للشرب.

رشف "هاشم" رشفة أخرى من سحابته زرقاء اللون ثم قال:

"ببساطة شديدة: لا تُكْثِر من استعمال الانتقال الخلوي، فحينما يتحلل جسدك إلى جزيئات عبر الأثير لتتجمع في مكان الوصول يتجدد نشاط جسدك، لكن هذا التحلل يستهلك طاقتك الروحية، التي لا ينشطها إلا استعمال وسائل النقل البدائية، كمركبتكِ هذه!"

ضحكت "مُنْتَهى" ضحكة قصيرة هازئة ثم قالت:

"أساطير الأولين دائماً مثيرة، لكن مركبتي هذه التي تظنها عتيقة هي من أفضل منتجات سنة 15-111، آه آسفة، من طراز سنة 3709، فأنت كجَدِّك يصعب عليك فهم النظام الزمني الجديد!"

"إذاً عُمْرُ مركبتك 7 سنوات؟ لو كنت أعلم بذلك ما خاطرت بمرافقتك!"

"إنك ترافقني لأن تخصصنا المهني يتوقف على هذه الزيارة، وأرجو ألا أندم لكونها إحدى مقترحات جَدِّك، هيا أكمل كوبك واستعد للهبوط، لقد وصلنا"

كان الظلام يلُفُّ تماماً سطح الكويكب، سماؤه سوداء كاحلة، لكن جَوّه كان على درجة من الصفاء بحيث يجعل من الممكن مشاهدة تفاصيل عشرات الكويكبات الأخرى التي تملأ سماءه ، كان سطحه أملط أحمر قاني لا يظهر عليه سوى بناء واحد فقط، نصف بيضة

عملاقة تنتأ من سطح الأرض، ذات لون ذهبي صاف، لمع عليها نور كوكب بعيد يلتهب بلون أصفر ضئيل، ما أن اقتربا من هذا البناء حتى أضيئت فجأة مساحة من الأرض بالقرب منه بشكل مثلث صغير أزرق خافت، ثم تراءت لهما في الجو جملة مكتوبة بلغة أرضية قديمة تأمرهما بالحط في هذا المربع، ابتلع "هاشم" آخر ما تبقى من سحابته الزرقاء الثقيلة ثم غمغم:

"هل تعتقدي أن هذه طريقة سِلْمِية في الاتصال؟"

"لا أعلم إن كان العجوز يعترف بقانون حماية الاتصالات بأنواعها، فنحن خارج النطاق الفعلي لآخر الكواكب المطبقة له، وهذا يعني أن القانون الساري هنا هو قانونه الشخصي، وببساطة علينا تتبعه، لأنه ليس لنا أي خيار آخر، إلا أنني أظن أنه علينا أن نتفاءل طالما أنه لم يرسل شيئاً يُدَمِّر مركبتنا!"

اقتربت المركبة من المثلث الأزرق الذي يبعد عن نصف البيضة الذهبية العملاقة بما يعادل الـ 100 متراً أرضياً ، لكن ما أن حطَّت المركبة فوقه تماماً حتى امتد فجأة ممر ضوئي بينها وبين نصف البيضة، ثم ارتفعت سريعاً على جانبي هذا الممر أعمدة غريبة متماثلة الطول بمسافات ثابتة فيما بينها، كانت قممها تضئ رغم أن شكلها يبدو كمجموعة أشجار غريبة، في هذه اللحظة قال "هاشم":

"أظن أن هذا لا يعني إلا أن نتبع هذا الممر إلى آخره، هل نحتاج لحمل أسلحتنا؟"

رَدَّت "مُنْتَهى":

"أظنك لست في حاجة إلا لمترجمك الشخصي"

"هل نسيتي أنه من أصل أرضي مثلنا؟"

"آه صحيح، وهذا سيسهِّل التعامل معه كثيراً، بل ستكون فرصة رائعة للتعرف على نموذج حقيقي من اللهجة الأرضية القديمة"

حينما وصلا إلى نهاية الممر اختفى فجأة مستطيل في جزء من جدار البناء البيضاوي الشاهق ليكشف عما يبدو قاعة فسيحة مظلمة، قالت "مُنْتَهى":

"ويقال لنا إن هذا الرجل هجر اتحاد الكواكب لأنه يريد حياة بلا تقنية، وماذا نسمي كل هذا؟"

رَدَّ "هاشم" وهو يتفحص بيديه الحواف الغريبة للفتحة:

"حينما تواجهيه اسأليه هذا السؤال!"

ما أن دخلا الفتحة حتى أضيء المكان، فاكتشفا أنهما داخل ساحة ضخمة جدرانها ذات لون أصفر معدني شديد اللمعان، والسقف ليس إلا قبة هائلة، قال "هاشم":

"علينا أن نعترف بأن الرجل مع ذلك لا يستخدم إلا أقل القليل من التقنية"

قالت "مُنْتَهى" وهي تمسح عرق كفيها في ركبتيها:

"هـذا صـحيح، إن المكـان فـارغ، ولا أظـن أن لديـنا خـياراً آخـر عدى ذلك المر الضيق"

كـان ممـراً برميلـياً طويـلاً مـنخفض السـقف فضِّـي الجـدران، لكـنهما شـعرا بـدفء حيـنما دخـلاه، وهـذا مـا خفَّـف قلـيلاً مـن اضـطرابهما، بعـد فـترة مـن السيروجـدا أن نهايـة هـذا المـر تـؤدي إلى صـالة واسـعة مـثيرة، همـس "هاشـم" وهـو يـنظر إلى السـقف المُقـوَّس شديد الارتفاع:

"هل هذا ما كان يُعْرَف بالذهب؟"

" رَدَّت "مُنْـتَـهى" وهـي تتـلمس بفضـول جـزءاً مـن الحـائط القريـب منها:

"بل هو نوع قديم من الأقمشة كان يُعْرَف بالقَطيفة، ومن المثير أنني ألمس لأول مرة عَيِّنَة حقيقية من هذا النسيج المنقرض

"إنني أقصد تلك المعدات والنتوءات اللامعة، مؤكد أن هذا هو الذهب، إنه مطابق للصور المُجَسَّمة التي أراها لـه في "الدماغ" أيام دراستي"

لم يكمل "هاشم" جملته حتى هز الصالة صوت أجش قوي:

"لقد عملت المستحيل كي أبتعد عن عالمكم المرعب، ومع ذلك جاء من يزعجني منه!"

كـان شخصـاً مهيبـاً جـداً، يـرتدي جُبَّة حـالكة السـواد، لا يمكـن

لمح تفاصيلها في ضوء الصالة الشاعري الذي مصدره لمعان نتوءات وأعمدة السقف والجدران، كان رجلاً طويلاً بشكل لافت، في الـ 200 من عمره، ذا جسد رياضي، أصلع الرأس تماماً، لكن عينيه العسليتين كانتا تشعان بقوة روحية لأول مرة يرى الشابان مثلها، كانا في منتصف الصالة حينما خرج هذا الرجل من ساحة صغيرة كأنها مذبح ديني عتيق تقع أعلى درج فخم من 6 درجات عريضة واقع إلى يسارهما، كانت "مُنْتَهى" أسرع في التغلب على تأثير المفاجأة من زميلها، فرَدَّت قائلة:

"سيدي، أرجو أن تعذر تطفُّلنَا هذا، لكن فشلت كل الطرق المعتادة للاتصال بك، حاولنا استثمار أي من قنوات "الدماغ" لكننا لم نجد لك طرفاً ، حاولنا الوصول إليك عن طريق التحلل الخلوي لكننا لم نجد عندك حجرة استقبال، فلم نجد إلا الوسيلة المباشرة للوصول إليك"

قال الرجل بصوت منخفض:

"لم أكن أتصور أن هناك من سيفكر في تحَمُّل مشاق هذه الطريقة البدائية للوصول إلى هذا المكان المهجور النائي، ثم كيف عرفتم أنني هنا بالذات وسط هذه الآلاف المتشابهة من هذه الكويكبات الصغيرة الباردة الجرداء والنائية؟"

ردت "مُنْتهى" بشفقة:

"إنك ملاذنا الأخير في بحثنا يا سيدي ..."

لكن الرجل قاطعها قبل أن تكمل حديثها بقوله:

"بحث؟"

"يتوقف عليه مستقبلنا المهني يا سيدي، إن وظيفة مترجم أفكار قديمة في "مركز فوبوس للآثار الفكرية" سيفوز بها من يستطيع ترجمة قُصاصة قديمة عُثِر عليها صدفة في أحد مناجم المَجَرَّة النائية المهجورة"

قاطع الرجل "مُنْتَهى" قائلاً:

"فوبوس؟ أأفسدتم هذا التابع المريخي أيضاً؟"

"لا، هذا المركز هو البناء الوحيد عليه، ويتبع مباشرة جامعة المريخ الأولى المعروفة بصرامتها الإجرائية ..."

قاطع الرجل "مُنْتَهى" مرة أخرى قائلاً:

"لا يهمني كل هذا، أتريدينني أن أجيب الامتحان بدلاً عنكما؟ أليس هذا غشاً مقيتاً؟"

هنا ردت "مُنْتَهى" بسرعة و بارتباك:

"أوه لا يا سيدي! إطلاقاً! إن البحث عن مصدر الإجابة هو جزء من الإجابة ذاتها يا سيدي، وممتحنينا سيقيِّمون مصدر وطريقة وصولنا إليها بأكثر من الترجمة ذاتها! إنهم يعرفون أن الإجابة موجودة في مكان ما، لكن الجدارة هي في كيفية الوصول إليها"

"حسناً، و لماذا لم تُوَجِّهي سؤالك إلى "الدماغ" إذاً؟ ألا تلجئون إليه دائما في كل كبيرة وصغيرة حتى فقدتم قدرتكم الشخصية على التفكير؟"

"سيدي لو كان "الدماغ" بإمكانه فعل هذا ما كان الفوز بالجائزة هو هذا السؤال!"

صمت الرجل قليلاً، واقترب إلى ما يشبه كرسي، ثم جلس عليه ببطء، وبعد أن اعتدل في جلسته قال:

"غريب! ألم تقولوا إنه صار كاملاً متى انتهيتم منذ أكثر من 900 سنة من خزن كل المعلومات الحياتية فيه؟"

رَدَّت "مُنْتَهى":

"سيدي إن "الدماغ" يُجدد نفسه باستمرار، وحسب قانون المعلوماتية الأول الذي أصدرته الهيئة العليا لمعلوماتية الاتحاد في 90-110 أقصد سنة 3390 صار تقليداً أن تُحْذَف كل المعلومات التي ظهر جديد يحل محلها ولم تعد بالتالي ذات فائدة لشعوب الاتحاد"

"ألا تقولون إن "الدماغ" له قدرة استيعابية لا متناهية؟ وأنكم لتثبيت هذه القدرة سَخَّرتم كوكباً بأكمله له وحده؟ لماذا الإتلاف إذاً؟"

"سيدي هذا لا ينتقص من قيمة "الدماغ"، لكنها وسيلة لترقية

جنسنا البشري بتوفير أحدث المعلومات أمامه دائماً وتحريره من التفكير في المعلومات التي ثبت قِدَمُها"

"حسناً، ومع ذلك ها أنتِ تقولين في بداية حديثك إن مستقبلكما المهني يتوقف على معلومات قصاصة قديمة، أليس هذا عبث لحضارتكم؟"

"سيدي إن إتلاف المعلومات القديمة بعد فترة زمنية معَيِّنَة سلوك قامت به كل الحضارات القديمة، لكن في ذات الوقت لم تتوقف الحضارات الحديثة عن دراسة القديم"

"إنك تذكرينني بالعبث البشري الذي طالما ضحكت عليه قبل أن أقرر ترك كل مستوطناتكم هذه التي تزعم التَّحَضُّر، إن البشر يصنعون أدوات لحياتهم ويبنون مستوطنات لسكنهم ثم يتلفونها لأسباب سخيفة وغبية، ليمُضي بعد ذلك بعض أحفادهم أعمارهم كلها في إيجادها ودراستها بشق الأنفس، تحت ما عرف باسم "علم الآثار"، والفكرة جيدة حينما كنتم تتعظون من أخطاء الأمم السابقة، لكن الآن حتى هذا العِلم حذفتموه، فكيف سيكون شكل حضارتكم الآن دون عيِّنات من الماضي؟"

"سيدي إن علم الآثار لم يُلْغ، ويمكنك اعتبار أنك أمام اثنين من المتخصصين فيه، كل ما في الأمر اتضح أن الآثار الهامة هي الآثار المعلوماتية، فَتَطَوَّر علم الآثار ليصير علم دراسة الآثار الفكرية بالمفهوم الشامل، بدل الآثار المادية التي لم يعد ضروري دراستها بعد أسلوب

الحفظ التلقائي لعيِّنات منها والذي اعتمده الاتحاد منذ أكثر من 600 سنة مضت"

هنا التفت "هاشم" إلى زميلته وقال لها هامساً:

"من الواضح أن هذا الرجل منقطع تماماً عن الاتحاد منذ زمن بعيد"

وكأن الرجل أحس بالحوار الهازئ فرفع من وتيرة صوته قليلاً قائلاً:

"كل هذا لا يهمني، ما المطلوب مني باختصار؟"

التفتت "مُنْتَهى" إلى زميلها فناولها بسرعة زراً صغيراً تقدمت به بعض خطوات نحو الرجل ثم قالت:

"كل ما نريده منك هو أن تُفْهِمُنا المكتوب على القُصاصة، وهذا ترجمة سمعية لإجابة الدماغ عن طَلبنا بترجمة كلماتها حرفياً"

عصرت "مُنْتَهى" الزر بين إصبعيها، فسمع الجميع بلغة أرضية حديثة:

...إجابة غير متوفرة، معلومات العَيِّنة استبدلت بأحدث منها...

تَفَحَّص الرجل "مُنْتَهى" بعينيه ملياً ثم قال:

"ولماذا لم تفتشوا عن هذه المعلومات الأحدث بدل إزعاجي؟"

رَدَّ "هاشم":

"لقد قمنا بهذه التجربة يا سيدي، فكانت الإجابة كمّاً هائلاً من المعلومات الاقتصادية والقانونية، والحق أننا لم نستطع الربط بينها وبين العَيِّنَة، كما أن المطلوب منا هو ترجمة حرفية لكلمات العَيِّنَة لا معناها، وإزاء هذا الوضع نصحنا جَدِّي بزيارتك، قائلاً إنك الوحيد من يملك إجابة لمثل هذه التساؤلات من بين كافة متصوِّفي عالم الشمس القديمة"

رَدَّ الرجل بغضب:

"حسناً حسناً، بعد قليل ستقول لي إنني أرقى من "الدماغ" ذاته، ناولني هذه العَيِّنَة"

ارتقى "هاشم" درجات السُلَّم الحمراء بسرعة، ووضع في يد الرجل الممدودة صورة مادية مضيئة بثلاثة أبعاد من العَيِّنَة، ثم عاد يطأ درجات السُلَّم بصورة عكسية ليعود إلى مكانه بجانب زميلته، قَلَّب الرجل العَيِّنَة أكثر من مرة، ثم التفت إلى الشابين وكأنه يكتشف وجودهما في الصالة للمرة الأولى، في تلك اللحظة ظهر فجأة بالقرب من مكان وقوفهما ما يشبه كراسي شفافة معلقة في الهواء ثم دعاهما للجلوس بحركة قديمة من إحدى يديه، همست "مُنْتَهى" في أذن "هاشم":

"يبدو أننا أخيراً استطعنا إقناعه بمساعدتنا"

ابتسم "هاشم" ثم قال هامساً:

"حتى لا تستهيني بِجَدِّي، فمن يعرف طريقة تفكير هؤلاء المتصوِّفين غير العجائز الحُكماء؟"

كان الرجل مازال يتفحص العَيِّنَة بصمت تام، لكن يبدو أن همسات الشابين جذبته من تأمله العميق، فالتفت نحوهما قائلاً:

"لقد كان الدماغ محقاً في استخفافه بهذه العَيِّنَة، إن حضارتكم لم تعد تهتم بما فيها"

ردَّت "مُنْتَهى" بِلَهَفة:

"هل توصلت لشيء سيدي؟"

"من المؤسف أنني عرفت كل شيء"!

نظر الشابان كلاهما للآخر وابتسما، لكن الرجل جذب أنظارهما بصوته المنخفض القوي وهو يقول:

"تَبَيَّن لي أن هذه القُصاصة جزء من نص يُعَد من تلك الدراسات التي شغلت فكر بشر أواخر القرن العشرين كثيراً"

همست "مُنْتَهى" بسرعة في أذن زميلها قائلة:

"مازال يستعمل النظام الزمني القديم!"

أجاب "هاشم" بلهفة وكأنه لم يسمع قول زميلته:

"عفواً يا سيدي، هل يمكنك أن توضح أكثر تلك الدراسات؟"

"النص الكامل لهذه القُصاصة - في اعتقادي - كان يتعامل مع فترة كان البشر أثناءها مشغولين كثيراً بمحاولة فهم تعليمات ما صار معروفاً فيما بعد بالبشر فوق العادة الروحية، أظن أن الدماغ يمكنه أن يُعَرِّفَكُما بهؤلاء"

قالت "مُنْتَهى":

"نُفَضِّل يا سيدي أن نستثمر فرصة لقائك لنعرف رأيك الكامل حول هذا الموضوع، كل ما تعرف عنه، ثم سنرى ما يمكن أن نعرفه من الدماغ"

تمتم الرجل بصوت خافت يدل على عدم رضاه على هذا المقترح، لكنه بلع غمغمته ثم قال:

"منذ أن ظهر النوع البشري كَتطَوُّر فكري أكثر منه جسدي من بين كائنات كوكبه الأول - المعروف الآن بالصحراء الأرضية - وظاهرة البشر فوق العادة الروحية تواكب تطوره التدريجي، الذين أسمتهم المعلوماتية اللاحقة "الخوارق الروحيون 1". كان هؤلاء يحاولون دوماً إفهام قومهم بأسلوب يقترب من فكرهم البسيط بعض قواعد مادية الكون، كان التركيب الجيني الافتراضي للحساسية الإدراكية لهؤلاء الخوارق على درجة من التطور بحيث كانوا - دون إرادة منهم - على اتصال فكري بجزء بسيط من طاقة إرسال "المُسَبِّب الأول"، وهذا ما جعلهم يحسُّون بما لا يحس به قومهم، يرون

روحياً مسببات الأشياء وتبعاتها تلقائياً دون أن يكون بمقدور قومهم ذلك، لكنهم كانوا يعانون من إيجاد الوسيلة التي تُمَكِّنُهُم من إيصال ما يرونه روحياً بأسلوب يفهمه من لا يرى هذه الرؤى من أبناء قومهم، ولا شك في أن هذه المهمة صعبة جداً فأبناء قومهم لا يملكون أصلاً المورِّثة التي تؤهلهم رؤية ما يراه هؤلاء الخوارق، والطريقة الوحيدة التي كانت متوفرة لهؤلاء الخوارق هي تقريب ما يُرى بما هو مألوف، فلم يكتشف الجنس البشري هذه الحقائق إلا بعد قرون من محاولات هؤلاء"

صمت الرجل قليلاً، حَك أثناءها لحيته عدة مرات ثم أكمل كلامه قائلاً:

"إلا أن هؤلاء الخوارق عانوا الأهوال، الكثير منهم قُتِلَ بسبب نصوصه رغم حسن نيته، كانوا ينعتونهم بالسحرة أحياناً وبالرغبة في السُلطة تارة أخرى"

انتفضت "مُنْتَهى" قائلة:

"لكن يا سيدي كيف يكون لهذه القُصاصة علاقة بكل هذا؟"

عَدَّل الرجل من جلسته بملل، و بينما عيونه مازالت معلقة بالسقف قال:

"كان هؤلاء الخوارق يتلون على قومهم نصوصاً تُعَدُّ نظم معلوماتية بدائية، تهدف أساساً إلى ترقية حياتهم لتكون أسهل من

الكائنات الحية الأخرى الأكثر بداءة منهم والتي كانت تعيش معهم على ذات كوكبهم، ومن ناحية أخرى محاولة إفهامهم حقيقة مرحلة الانتقال إلى مرحلة حياة الطاقة الصافية التي شغلت فكر أجيال كثيرة منهم طوال قرون، أما طريقة حفظ هذه النصوص مادياً فلم يفَكِّر فيها إلا آخر ثلاثة منهم، بتطور تصاعدي في طريقة الحفظ، أولهم اكتفى بالتشديد على حفظ مجموعة أسطر معلوماتية اعتبرها ملخصاً للحقيقة المادية الكونية، الثاني - الذي ظهر بعده بـ 1436 سنة - قام أتباعه بمهمة الحفظ بعد اختفائه المادي، لكن حفظهم لها كان على درجة ضعيفة من الإتقان، أما الأخير والذي ظهر بعد 570 سنة منه فقد حُفِظَت كامل نصوصه قبل موته"

بعد فترة صمت أخرى التفت الرجل إلى الشابين وكأن حبل الإلهام الذي كان يستقي منه معلوماته انقطع، ثم وضع العَيِّنَة على ما يشبه المذبح أمامه وقال:

"أعتقد أنني أجبت عن أسئلتكما الآن"

أسرع "هاشم" قائلاً:

"أتقصد أن هذه العَيِّنَة هي عَيِّنَة من هذه النصوص؟"

أسند الرجل ظهره إلى الكرسي ببطء شديد، وبعد أن مد ساعديه على حافتي الكرسي قال:

"الواقـع هـي عَيِّـنة مـن دراسـات أجريـت فـيما بعـد، قارنـت النصـوص القديمـة لهـؤلاء الخـوارق الـثلاثة فـيما بيـنها، ثـم بيـنها وبـين نصـوص أحـدث مـنها وضـعها بشـر بدرجـة روحـية خـارقـة أقـل، عُـرفوا مؤخـراً بـأنهم الخـوارق الـروحـيون 2، تمـيـيزاً لهـم عـن الخـوارق القـدمـاء، وعـلى أي حـال فالسـلالة البشـرية الـتي تعـيش مـتفرقة عـلى كـواكـب الاتحـاد الآن هـم أحفـاد هـؤلاء، كـان الخـوارق الـروحـيون 1 يـتلون نصـوصـهم دون تجـربة، إذ لم يكـونـوا بحـاجـة أصـلاً إلـيها لقـوة اتصـالهم الافتراضـية بالمُسَـبِّب الأول، في حـين أن الخـوارق الـروحـيين 2 كـانـوا يضـعون نصـوصـهم بعـد تجـريبها بأسـاليب مـاديـة مخـتلفة، المشـكلة أن أتـبـاع الـثلاثة الأخيـريـن مـن الخـوارق الـروحـيين 1 اخـتلفوا كـثيراً فـيما بيـنهم، والأمـر الـذي يـبدو مضـحكاً الـيوم كـان مثـيراً للـرعـب آنـذاك، كـان أتـبـاع الخـارق مـا قـبل قـبل الأخـير قـد أنكـروا كـلام الخـارق الـذي جـاء بعـده، رغـم أنـه أوضـح بـأن كـلامـه لم يكـن يخـتلف كـثيراً عـن مجـموعـة أسـطر الخـارق الـذي سـبقه بـل هـي شـرح موسـع لهـا، أمـا أتـبـاعه هـو فقـد تمسـكوا مـن بعـد اختفـائه المـادي بجـزئية شـكلية بـدل تعـليمـات نصـوصـه ذاتهـا، قـاصـدين مـن ذلـك الـرفـع مـن مكـانـته حـتى جعـلتهم المغـالاة في هـذا التمسـك يخلطـون بيـنه وبـين "المُسَـبِّب الأول"، وهـذا مـا كـان أحـد رئيسـات رفـض آخـر الخـوارق القـدمـاء لنصـوصـهم، وأتـبـاعه مـن بعـده سـاروا عـلى نهجـه"

شبك الرجل يديه فوق بطنه ثم أَرْدف قائلاً:

"المشـكلة الـتي بـرزت بعـد ذلـك بسـنين هـي أن أتـبـاع هـؤلاء

الخوارق الثلاث كذّب كل منهم نصوص الآخر، فتصارعوا فيما بينهم دون أن يكون هناك سبباً معلوماتياً لذلك وإنما نفعياً بحتاً، وما نراه الآن متمشياً مع طبيعتهم الروحية العمياء وتفسير بسيط لبدائيتهم الفكرية كان صراعاً مصيرياً قوياً يجري بينهم، كان أتباع كل خارق يدعون أنهم بتعصبهم لتعليمات خارقهم يرضون المُسَبِّب الأول، وبعد قرون من الصراع اتضح أن مقاصد كل الخوارق القدماء واحدة وإن اختلف أسلوب تقديمها زمنياً واصطلاحيا، وكان الوصول إلى هذه النتيجة بفضل جهد بذله الخارقون 2 طوال قرون، الذين لم ينج الكثير منهم مما واجهه الخارقون1"

سأل "هاشم" وسبَّابته تنقر بتوتر حافة الكرسي الشفاف:

"هل يمكننا معرفة هذه النتيجة؟"

"إنها ما يعرفه صغاركم اليوم: حتمية وجود "المُسَبِّب الأول" من ناحية، وإرادته في الانتقال إلى مرحلة حياة الطاقة الأبدية عبر مرحلة سكون مؤقتة من ناحية أخرى"

لم يُزِد الرجل كلمة واحدة بعدها، كأن طاقة الكلام نضبت فجأة منه، لف الصالة صمت ثقيل قطعه همس "هاشم" في أذن زميلته:

"إذاً هذا هو ما يقصده "الدماغ"، كلمات القُصاصة تُعَد ملخصاً لكل بديهيات حياتنا اليوم التي لم يعد لشرحها معنى! إن ترجمة معنى القصاصة يعني غالبية محتوى الدماغ!"

هنا نهضت "مُنْتَهى" وسارت ببطء نحو درجات السلم الرخامي الحمراء، وما أن اقتربت من أولى درجاته حتى قالت:

"سيدي، نشكرك لكل هذه المعلوماتية التي تملكها دون وسائل حفظ معاصرة، ورغم ابتعادك عن نظام مدنية اتحاد الكواكب إلا أن هذا لا يعني إلا أن لك شفافية روحية أعتقد أنها ستؤهلك لأن تكون جَد سلالة بشرية أرقى"

لم تظهر على وجه الرجل أي علامات استجابة، إلا أن هذا لم يمنع "مُنْتَهى" من أن تُكمِل كلامها قائلة:

"... واسمح لي يا سيدي أن تعتبر العَيِّنة هدية منا إليك، كمحاولة بسيطة منا نُعَبِّر بها عن كامل تقديرنا لشخصكم وإرثكم المعلوماتي"

لم تتغير سحنة الرجل العجوز، وكأنه لم يسمع كلام "مُنْتَهى" قال:

"اتباعكما لهذا الممر سيوصلكما إلى مركبتكما، واعلموا أن بعد رحيلكما سأعمل على سد الثغرة الأمنية التي سمحت بوصولكم إلى هنا، فلا تفكرا في العودة"

ما هي إلا دقائق حتى كانت عينا الرجل تتابع من خلال فتحة على الجدار الذي كان يقف بمحاذاته ارتفاع مركبة الشابين إلى السماء، ظل يتأملها ببرود وهي تصغر وتصغر حتى ابتلعها الظلام، عندها تحولت نظراته إلى ما يشبه المذبح القريب منه، كان يتمعَّن في

العَيِّنَة التي تركها الشاب بابتسامة يائسة، وظل لدقائق يتأمل كلماتها القليلة المكتوبة بلغة أرضية منقرضة:

الدكتور موريس بوكاي

القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعِلم

دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة

مَهَمَّة فَاشِلة



لشهور عدة نقَّب كافة أعضاء البعثة كل شِبْر من التربة دون أي نتيجة، فرحوا بداية حينما تبيَّن لهم وجود كوكب في منطقة الحياة من النجم الذي وجدوه في طريق عودتهم، كانوا يأملون في أن يجدوا أي دليل للحياة فيه بعد أن فشلت أجهزة رصدهم في كشف أي جنس متحضر فوقه، لكنهم رضخوا في آخر المطاف للأمر واكتفوا بأن وعدوا أنفسهم بالفرح لو أنهم وجدوا أي دليل لأي نوع من أي حياة كربونية فيه، وبعد أن كانوا ينقبون بنشاط و فرح بدا لهم أن وجودهم على هذا الكوكب لا طائل منه، فاستسلموا في آخر الأمر لإلحاح قائدهم الذي كان يود أن يعود أربعتهم بسرعة إلى مركبتهم الأم مكتفيين بتلك القطعة المستطيلة من معدن مجهول وجدوها مرمية بإهمال في قاع إحدى الحفر العميقة، يعلو سطحها بعض خربشات محفورة شبه ممحية، هي الشيء الوحيد الذي وجدوه على هذا الكوكب بخلاف الصخور والتربة المتفحمة وملايين الحفر الضيقة والعميقة جداً.

حينما عادوا صارت هذه القطعة بالرغم من تفاهتها حديث جميع وسائل الإعلام في كل مكان، كان الجميع يتحدث عنها بصفتها أول دليل لوجود حضارة مزدهرة ما خارج كواكبهم، كما

كانت دليلاً على نجاح باهر لبرنامج استكشاف العوالم القريبة بعد أن شكَّك في قدراته والنتائج التي يمكن أن يصل إليها وحتى جدواه في نهاية الأمر عدد كبير من العلماء والمسؤولين المنافسين، لم تضيِّع التجارة و الصناعة الفرصة إذ سرعان ما بدأت توزع في كل مكان نماذج تذكارية من هذه القطعة المكتشفة بأحجام لا نهاية لها في مشروع تجاري مزدهر لم يشهده كوكبهم منذ قرون.

حدث كل ذلك قبل حتى أن تُعْلِن اللجنة العلمية نتائجها التي تم تشكيلها من كبار العلماء والمسؤولين باختلاف تخصصاتهم، في البدء انهمكوا بنشاط غير عادي طوال اليوم يتدارسون تفسير وجودها لوحدها على سطح الكوكب، ثم سرعان ما رأوا حكمة تشكيل لجان فرعية عديدة لفك الرموز الغريبة التي كانت منقوشة عليها.

لكن الوقت طال دون ظهور أي نتيجة، اللجان الفرعية انبثقت عنها لجان فرعية أخرى عقدت آلاف الجلسات اليومية و الساعات واستهلكت مختبراتها كميات كبيرة من المحاليل والأجهزة دون أن تصل إلى أي نتيجة مفيدة، لذا بدأ ذلك الحماس المُتَّقِد في البداية يفتر شيئاً فشيئاً، ثم لم تعد الجلسات إلا لاسترجاع ذكريات لحظات الاكتشاف الأولى، وما هي إلا فترة وجيزة حتى رأت المجموعة حكمة إنهاء دراستها وتبييض تقريرها النهائي الذي جاء مقتصراً على جملة واحدة:

طبقاً للنتائج التي وصلنا إليها فكل ما يمكننا قوله هو إنه لم

تقم أي حضارة عاقلة على الكوكب المكتشف مؤخراً والذي اصطلحنا على تسميته بكوكب الحفر العميقة.

طبقاً لهذه النتيجة أخذت هذه القطعة موقعاً هامشياً في متحف المدينة الرئيس، ولم يعد ينظر إليها إلا كعيِّنَة تافهة من ذلك الكوكب المثقوب البعيد.

وبينما كان أمين المتحف - الذي هو أيضاً أحد أعضاء اللجنة السابقين - يجلس بمكتبه بعد أشهر من انفكاك اللجنة فوجئ بمساعده يدخل عليه و يقول له هامساً إن أحد العلماء الصغار في المستوطنة الجارة يزعم أنه نجح في فك رموز تلك الشخبطات العشوائية التي وجدت على قطعة المعدن اليتيم، ثم وضع أمامه الكرة التي تحوي الترجمة، تفحَّص الترجمة لبعض الوقت ثم قال في حيرة:

"أعتذر، لم أفهم شيئاً منها، لكنني سأنقل هذه النتيجة فوراً إلى أعضاء اللجنة"

كان كبار المسؤولين يودُّون منذ البداية الاحتفاظ بشرف الاكتشاف لأنفسهم، لذا منعوا تسرب تفاصيل مداولات اللجنة إلى أي من المستوطنات الجارة تحت طائلة عقوبة الإعدام الفوري، أما بعد هذا الفشل الذريع وفتور الحماس لم يعد التكتم مهماً، فانعقدت سريعاً اللجنة مرة أخرى بصحبة ضيف الشرف هذه المرة: ذلك العالِم الصغير الذي يزعم أنه اكتشف السِّر، كان التوتر يغلب على وجوه كافة الأعضاء، فقد كانوا مدركين إلى أن اجتماعهم هذا لن ينفض

دون أن يضعوا حدّاً لمصير قطعة المعدن هذه، بعد مراسم الترحيب التقليدية شاهد الجميع على لوحة العرض الضخمة أمامهم ترجمة تلك الشخبطات طبقاً لما جاء به الضيف غير المُرَحَّب به! بعد فترة تأمل أدلى كل عضو بما رآه تعليقه الشخصي لهذه الترجمة، وعلى غير العادة كان رئيس المجموعة غير مكترث طوال الوقت يتململ بكسل بليد، وحينما جاء دوره فاجأ الجميع بقوله:

"بعد كل ما قاله الضيف الكريم وتعاليقكم على ما قال صرت أكثر يقيناً من صحة رأيي السابق: ليس هناك أي دليل على وجود أي حضارة عاقلة نشأت على هذا الكوكب المثقوب بغزارة"

غرق الجميع في صمت يائس بعد ذلك، بينما استمرت لوحة العرض أمامهم تبرق بترجمة تلك الشخبطات:

صاروخ نيتروني ذكي

رقم التصنيع: 6459264

سنة الصنع 3763

جيش اتحاد الأرض الشمالي

مُشْكِلَة إيمانيَّة



داس بتردد عتبات الدرج الرخامي الضخم أمامه ، حينما وصل العتبة الأخيرة نزع حذاءه بيده اليمنى بينما كانت يده اليسرى تتكئ على الحافة الداخلية الرخامية للباب المرتفع برهبة والمفتوح مصراعاه عن آخرهما ، دلف يدخل الباب بقوة ، لكنه بعد خطوتين توقف فجأة ، لا بسبب الاتساع المدهش للصالة التي وجد نفسه فجأة فيها ، ولا بسبب السِّجَّادة الضخمة التي وجدها تغطي كامل أرضيتها وكأنها قطعة واحدة مفروشة تحت الأعمدة ، ولم يكن عُلُو السقف العجيب الذي لم يعرف من أين ينبع ضوءه ، ولم يكن أيضاً بسبب تلك الزخارف النباتية المدهشة التي بدت وكأنها تَبْرُز من الجدران والأعمدة الكثيرة ، كان توقفه لأن عينيه بدأتا تتصفحان وجوه الجالسين بتناثر هنا وهناك متكأين على الأعمدة ، لقد جذبتهم وقفته الفجائية ورائحة عطره القوية ، إلا أن طوله اللافت وجسده الرياضي وأناقته المفرطة جعلت عيونهم تبتعد عنه احتراماً ، فَكَّر في أن يسأل أحدهم لكنه في هذه اللحظة أحس بشيء يلمس كتفه الأيسر فالتفت لا شعورياً إليه ليرى وجه عجوز باسم لا تشعر أمامه سوى أنك بين يدي ملاك ، فخفف توتره قليلاً ، لكن هذا العجوز لم يتح له المزيد من الوقت ، إذ بادره بسرعة قائلاً:

"لا تغلق الباب بقامتك المهيبة يا بني!"

قال له ذلك وهو يبتسم بلطف بالغ ، فانتهز هذه الفرصة

ليسأله بشيء من التردد:

"أين أجد الإمام من فضلك؟"

لم يقلقه بأي سؤال فضولي ، فقط أشار له بإصبعه لشخص في آخر الصالة أمامه بالكاد يظهر ، عندها داست قدماه بخطوات مفتوحة وواثقة السجادة الفارهة نحو آخر الصالة ، جاعلاً صف أعمدة الصحن الكثيرة إلى يساره وكأنها دليل يتبعه ليوصله إلى مقصده ، كان ينظر أثناء سيره إلى قواعد الأعمدة التي يمر بها فأعجب بدقة إحاطة السجادة لحوافها حتى كأن العمود قد وُضِع فوقها بعد أن فُرِشَت السجادة تحته!

حينما وصل الإمام لم يجده منتبهاً له ، كان يبدو من جانبه الأيمن شيخاً ذا بشرة شديدة الحُمْرَة ، في المائة من عمره ، معتدل الطول ، أصلع ، أجرد ، يرتدي جلباباً رمادياً طويلاً ، وقبعة أسطوانية حمراء غير مألوفة ، كان يتأرجح من رسغ يده اليسرى سلسلة ذات حَبَّات كبيرة نسبياً مضيئة ، وسبَّابة يده اليمنى تضغط من حين لآخر بعض مربعات صغيرة فوق شاشة مستطيلة مضيئة موضوعة على مسطبة يتكئ عليها ساعداه ، شكَّلت هي والكرسي الذي يجلس عليه قطعة واحدة لا تلمس الأرض ، مما أعطى الفرصة للسجادة بأن تمتد تحتها بيسر ، كانت وحْدَة العمل نصف البرميلية هذه تنتأ بجمال أخَّاذ من الجدار أمامَه وكأن إبهام عملاق تسبب في بروزها بضغط الجدار خلفها! نظر إلى جهاز قياس الزمن أعلاها فابتسم ، وجد أن أرقامه تُشير إلى أنها الدقيقة الثالثة من الساعة الثالثة من اليوم الثالث من الأسبوع الثالث من الشهر الثالث من سنة 3333 ، لكنه أحس بأن وقوفه الصامت هذا أثار ريبة الشيخ فأسرع يقول له بصوت متردد أجهد نفسه في أن يكون مسموعاً:

"السَّلام عليكم!"

التفت إليه الشيخ منتبهاً ثم أسرع يرد عليه بتحية أفضل منها:

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وزكياته ، تفضَّل!"

أسرع يشير بيده إلى أقرب نافذة يدعوه للجلوس بقربها

"آسف لو أنني قطعت عنك عملك ، لو أنك مشغول فسآتي لك في وقت آخر"

"لا أبداً ، إنني أتلهَّي بالإعداد لخُطبة الجُمعة المقبلة ، ومازال الوقت مبكراً لها ، تفضل"

جلسا فوق سجادة الأرض الفاخرة متقابلين يبعدان عن بعضهما نحو ذراع ، في جلسة شرقية تجعل القدم اليسرى تتكئ عليها الركبة اليمنى والعكس ، جاءت جلستهما عمداً محاذية للجدار الشَّمَالي بحيث جاءت نافذة طويلة بينهما كادت حافتها السفلية تلامس الأرض ، وضع الشيخ يده على لوحة مفاتيح في المساحة الضيقة الفاصلة بينها و السجادة ثم سأله مبتسماً:

"ما المنظر الذي تفضله؟ داخلي؟ خارجي؟ طبيعة؟"

هدأت ملامحه قليلاً ، لكنه لم يكن مهتماً بالمنظر الذي يجلس بجانبه بقدر ما كان يهتم بما أقلقه طوال الأيام الماضية:

"يا شيخنا أريد استشارتك في أمر أرَّقني كثيراً الأيام الماضية ، حتى أنني بِت أخشى أن يؤثر على عقلي"

انتبه الشيخ أكثر وارتسمت على وجهه علامات الجِدِّية

والرغبة في الإصغاء التام ، وبإيماءة من رأسه تشجَّع فأردف قائلاً:

"إن مسألة الدِّين - كغالبية أُناس اليوم - لم أكن أفكر فيها مطلقاً ، ومع احترامي لمعبدك هذا ، لم أكن أرى أي معنى للدِّين ، خصوصاً و أنه يَحُثُّ الإنسان على العمل الصالح والابتعاد عن الشرور وأنا في حياتي ما عرفت غير العمل المفيد المستمر، كما أنني دائم الصيام عن الطعام ، إضافة إلى أنني لم أتزوج حتى هذه اللحظة ، لا بطريقة شرعية ولا غير شرعية ، لأنني ببساطة أحس بأنني ما خُلِقْتُ سوى لمهنة الطب ، وحينما أصبت مالاً كثيراً من هذه المهنة بنيت المراكز الاستشفائية والخدمية المختلفة المجانية لمن يستحقونها في أي مكان وزمان ، ومهما كانت الكلفة"

ابتسم الشيخ ابتسامة عريضة وقال له بسرور بالغ وهو يكاد يطير فرحاً:

"بارك اللّٰه فيك يا بني ، نِعْم الرجال أنت ، ليت الجميع ممن هم في مستواك الاجتماعي يقومون بِرُبْع ما فعلت ، لكانت حياة الكثيرين من تعسائنا تغيَّرت ، لا شك في أن الخالق سيجازيك على صنيعك هذا بأفضل مما تتوقع ، فقط لو أنك تؤمن به أولاً!"

انفرجت أساريره قليلاً ، وابتسم ثم قال بأدب جَم:

"أشكرك يا شيخنا ، لكنني لم أكمل كلامي بعد ، مع الوقت بدأت أحس بالفراغ ، فموظفيَّ هم من الكثرة بحيث لا يتبق لي ما أعمله ، هذا الفراغ سمح لعقلي بأن يفكر في أمور أخرى غير العمل ، بدأت أفكر في نفسي والغرض من وجودي وسر تفوقي على باقي زملائي ، صدفة تعرفت على بعض تعاليم دينكم من أحد موظفيَّ

فأثارت فضولي ، لم أدرك أهميتها بالنسبة لي في تلك اللحظة ، لكنها تسببت في أن يعمل عقلي بطريقة لم أعهدها من قبل ، أحسست بأن دينكم هذا يلخص معنى هذه الحياة ، الغرض منها بالذات ، كما أنه يوضح لنا سبب الكثير من الظواهر الإنسانية الطبيعية المختلفة بأسلوب عقلاني ، كما شعرت بأنه ـ على الرغم من سذاجة بعض تعليماته ـ يتنبأ بالكثير من نتائج بعض السلوكيات التي تعارف القدماء على تسميتها بالأخلاقية وغير الأخلاقية ، خصوصاً وأنني وجدت أن النتائج الضارة التي تنتج من مخالفة التعليمات التي تُعْرَفُ في رُزمة مصدر دينكم الرئيس بالأخلاق الحميدة هي ضارة جداً على البيئة والتجارة كما هي على الفرد والمجتمع"

صمت قليلاً وحملقت عيناه قليلاً في الأرض ، بينما لمست أطراف أصابع يديه بعضها أثناء ما كانت كفّاه مفتوحين متقابلين ، أحس بأنه ربما يقلق الشيخ المنتبه له تماماً بطول صمته فأسرع يرفع رأسه ويُكْمِل قائلاً:

"الخلاصة أنني للمرة الأولى أُعْجِبْت بدينكم ورغبت جداً في أن أكون أحد أتباعه ، لكنني لا أعرف ما إذا كان هذا كافياً لأكون منكم ، هل من الممكن حقاً أن أكون كذلك؟"

ظهرت على وجه الشيخ علامات السعادة البالغة ، فقال وفمه يرسم ابتسامة عريضة:

"ولم لا؟ بعد كل ما ذكرته لي يكفي أن تعتقد في الشهادتين وأنت تنطق بهما"

"نعم قيل لي ذلك ، لكنني أحس بأن المسألة هي أكثر من مُجَرَّد

كلام ، هل أعمالي الخيرية العديدة مثلاً التي صرفت عليها كل ثروتي يمكنها أن تقربني أكثر إلى الله؟"

"هذا مما لا شك فيه ، ليت كل مؤمن يفعل ما فعلت ، إنك لا تعلم كم أنت متفوق بأعمالك هذه على الكثيرين من المؤمنين"

صمت مرة أخرى وكأنه كان يبحث عن كلمات أفضل تُعَبِّر بدقة أكثر عما يريد أن يجد جواباً شافياً له ثم قال:

"أتقصد أنه من الممكن أن يكون الله قد قَبِلَ إيماني؟"

مسح الشيخ ذقنه عدة مرات بِكَفِّه الأيمن ثم تناولت يداه الاثنتان طرف تلك السلسلة المعلقة في رسغ يده اليسرى والتهت بِعَدِّ حباتها بسرعة عدة مرات ثم قال يتكلَّف الجِدِّية:

"يا بني لاشك في أن مشيئة الله لا يعلمها أحد غيره ، لكن طالما أنك آمنت به وتعمل الصالح من الأعمال وتبتعد عن شرورها فهذه هي كل شروط رضا الله على عباده كما قال لنا هو ذلك في مصدر ديننا على الأقل"

تنهد بعمق ثم خفض رأسه نحو السجادة حتى بدا وكأنه يتابع بنظره نملة تسير فوق ساقه اليسرى المشبوكة تحت اليمنى ، شبك يديه بتعشيق أصابعهما فيما بينها بينما ارتكز مرفقاه على ركبتيه ، ظل على هذا الوضع بعض دقائق صامتاً ثم فجأة رفع رأسه ونظر في عيني الشيخ ملياً ثم قال بلا مقدمات:

"... حتى بالرُغْم من أنني ... في الواقع ... ... إنسان آلي؟؟؟"

أقْوَى الأسْلِحَة



لا عجب في أن يسميه رُوَّادُه "النجمة المُظْلِمة"، فعلى الرغم من أنه أفخم مقهى فضائي نقَّال في هذا الطرف من المَجَرَّة إلا أنه بعيد عن أي كوكب أو نجم، ليس سوى بُرْج هرمي أسود عملاق معلَّق دائماً وسط فراغ فضائي مُظلم ما بين المجموعة الشمسية القديمة و"المرأة المسلسلة"، أقرب المجرَّات إليها، للقادم إليه من بعيد تبدو بعض النوافذ التي تتخلل جسمه وكأنها مصابيح صغيرة تشع من ثقوب في الفضاء حالك الظلمة، إلا أن أصحابه أحسنوا اختيار موقعه هذا منذ البداية، فهو لا يقع فقط في منتصف أعرق الطرق التجارية التقليدية في هذا المكان من المجرَّة بل وحتى أكثرها ازدحاما، لذا تجده يعج دائماً بِزُوَّار يشكلون خليطاً عجيباً من أجناس وأنواع مختلفة، بشر من كافة مستوطناتهم وكذلك "مُسلسليين"! طيبون وطماعون، عسكريون ولصوص ومحتالون وعلماء، لا عجب إذاً أن يكون مكان أذكى أذكياء المجرة لِعَقْدِ أضخم الصفقات ربحاً، لكنه بالنسبة لي لم يكن سوى مكان مثالي للاسترخاء اليومي بعد عناء عمل يوم أرضي كامل.

ما أن ركنت عربتي في محطته السفلية وولجت مدخله الرئيس الشاهق حتى لفحت وجهي تلك الحرارة المعتادة لذلك الصخب الحميم الذي تشتهر به القاعة الرئيسة الفسيحة، عشرات من الزبائن يتناثرون هنا وهناك، الجالسون حول المناضد السابحة في الهواء يتسلَّون بشراب

أو لعبة إلكترونية جماعية أو فردية، المُتَحلِّقون معاً حول المناضد الطائرة الدوَّارة ببطء حلزوني يتصاعد ويتنازل مع آخرين لم يتعرَّفوا عليهم إلا منذ لحظات يقهقهون ويمرحون بصخب قد يبدو شاذاً للبعض الآخر، نُدُل تستغرب تنقلهم السريع ما بين المناضد رغم تناثرها في الأبعاد الثلاثة، زبائن يتجمعون و يتفرقون بسرعة خاطفة حول فرد منهم أو منضدة، إلا أن القليل منهم فَضّل أن يظل متكئاً بصمت يتابع منظر القاعة وزبائنها ببلاهة من إحدى الشُّرْفات العديدة المعلقة على ارتفاع شاهق، مطلقاً العنان لأنفه في أن يسحب ما يشاء من رائحة شراب "البركة" الذي ملأت سحابته الكثيفة سقف القاعة، أما الأصوات فَحَدِّث ولا حرج، امتزجت أصوات الآدميين بأصوات المخلوقات "المُسلسلية" بالأصوات الإيقاعية التي يُعِدُّها البعض ما تبقى مما كان يسمى "موسيقى" في الماضي الأرضي السحيق!

لكنني لم أتوقع أن أراه هو بالذات في ذلك المساء، لمحته بصعوبة جالس وسط الصالة تماماً قرب إحدى المناضد الدوَّارة، ثملاً كعادته يمارس لعب القمار الجديد مع بعض السذج من "المُسلسليين"، إنه "الفريق أول مَجَرَّة متقاعد تأبط شراً"، رفيق أبي في كل الحروب التي خاضاها معاً، لا عجب على أي حال أن أجده في هذا المقهى الفخم، فهو بعد أن تقاعد قرر أن يَصْرف كامل ثروته للاحتفاء بانتصاراته. كما يقول - على طريقته الخَاصة حتى آخر لحظات عمره، وكثيراً ما كان يقول لأبي إنه سيعوض كل تلك السنين التي حرمته الحياة العسكرية من الاستمتاع بها.

اقتربت منه، وما أن رآني حتى فرح بلقائي ودعاني بحرارة للجلوس معه ثم أشار إلى رفاقه بأن يتركوه لوحده، ما أن انسحبوا

حتى جلست قبالته وغرقنا في مجاملات تقليدية، سرعان ما أثارت انتباهي تلك القلادة الفخمة اللامعة التي كان يعلِّقها دون غيرها على الجزء العلوي الأيسر من صدره، استغربت كيف يعلق وساماً عسكرياً على زي مدني في مكان صاخب أقل ما يقال عنه إنه بعيد عن الانضباط العسكري الذي اشتهر به شخصياً، ترددت في سؤاله، لكنه أحس باهتمامي به، فالتفت إليه ولمس حافته بين سبابته وإبهامه الأيمن، نظر إليه مَلِيًّاً وقلَّبه عدة مرات ثم التفت لي وقال باسماً:

"هل أعجبك؟ إن له قصة لا أظن ضابطاً في أي مكان وزمان لا يفخر بترددادها تكراراً لحد الملل ولو كان في قمة تواضعه"

فركت رأسي بحذر وأنا أمعن النظر ملياً فيه، لكن قبل حتى أن أخبره برغبتي من عدمها في سماع القصة حمل كأسه من فوق المنضدة وأفرغه في جوفه، ثم أعاده على المنضدة لينلدلق الكلام من فمه بعد ذلك كنهر جارف:

"لم يقتنعوا بأننا الأقوى والأقدر على استعمار واستثمار ثروات كوكبهم المائي بشكل أفضل، فاكتسحناه كاملاً بالقوة، وفي غضون بعض سنوات أرضية لم يتبق منه إلا معقل وحيد كان آخر جيوب المقاومة، إلا أنه على العكس مما كنا نتوقع كان الأكثر قوة من بين كل أشكال المقاومة التي حاربناها، في الواقع فشلت جميع أسلحة فيالق جيوشنا حتى في هز أركانه، ليس غريباً ذلك على أي حال، إذ أنهم أجهدوا عقولهم و سواعدهم من أجل تعزيز أركانه بصفته آخر معاقلهم ورمز مقاومتهم التاريخية المستمرة، كان مستوطنة صغيرة أُنْشِئَت في فجوة في قاع البحر الشرقي العظيم، في موقع منزو يُعَدُّ نقطة تقاطع جبلين عظيمين لا ينتأ منهما أعلى سطح الماء إلا بعض قممهما، كان

يغلف كامل المستوطنة قبة عظيمة ظل كامل جسمها تحت سطح الماء بعدة أمتار أرضية، كانت مصنوعة من معدن شفاف هو أقوى معادن كوكبهم الذي أثبت قدرته على مقاومة الحرارة والبرودة طوال ملايين السنين، لقد أفلحت علومهم المحلية في أن تُمَكِّنُهُم أخيراً من تكتيل جلاميد هذا المعدن ليغطي كامل مستوطنتهم الصغيرة، لكنهم لم يكتفوا بذلك، إذ حفروا سلسلة خنادق دائرية عميقة معقدة أحاطت بمستوطنتهم هذه، ثم كان ذلك الغلاف غير المرئي من الطاقة الصافية الذي منع أي تجسس سمعي أو بصري أو حتى عقلي عليهم، وكأن كل هذا لا يكفي نمت فوق هذه المستوطنة أعشاب بحرية عملاقة جعلت من المتعذر رؤية أي شيء فيها بالعين المُجَرَّدة"

هنا توقف الفريق المتقاعد فجأة عن الحديث وكأنه استيقظ من سبات عميق، وفي اللحظة التي ظننت أنه سيكمل قصته أسرع يقبض بيده اليسرى على كأسه الفارغ ويضغط بسبابته اليمنى زراً على المنضدة أمامه ليمتلئ الكأس بالشراب حتى حافته، كنت أظنه سيبتلعه كسابقيه لكنه توقف عن الحركة واستغرق في التفكير وكأنه يسترجع أحداثاً من أبعد أركان ذاكرته، بعد دقائق أكمل حديثه وعيناه معلّقتان في الكأس قائلاً:

"لكننا لم نيأس، كنا لا نتوقف عن محاولة اقتحام هذا الموقع الحصين، وطوال 200 سنة أرضية لم تنجح كل الخطط التي وضعها أركان حرب البحر والجو، كما أن كل شجاعة قادة وأفراد فيالق قواتنا الخاصة فشلت في اقتحام هذا الموقع، فظلت أشلاء أجسادهم ومركباتهم مدفونة جزئياً أو كلياً مبعثرة عشوائية حول القبة طوال الـ 200 سنة الماضية، تشهد بخجل على ضعف قدرتنا العسكرية تجاهها، لكنها تشهد أيضاً على عظمة تصميمنا المعنوي المستمر لاقتحامها،

فظل أفراد المستوطنة البالغ عددهم نحو 9000 يعيشون بكامل حريتهم في منازلهم مع زوجاتهم وأبنائهم ، يولِّدون طاقة حياتهم بداخل تحصينهم هذا دون حتى الحاجة للخروج"

في هذه اللحظة خفَّض العم المخمور رأسه حتى لامست شفتيه كأسه، رشف رشفة منه دون أن تترك قاعدته المنضدة أو تتركه يده اليسرى، أحس ببرودة الشراب فجفل عنه ثم ارتسمت على وجهه علامات تقزز، إلا أنه يبدو وكأن ذاكرته نشطت قليلاً من جرَّاء هذه الرشفة ، إذ سرعان ما رفع رأسه عالياً ونفخ صدره وتأهب للحديث حتى ظننت أنه سيخطب إحدى تلك الخطب القديمة التي كان يُخَدِّر بها رؤساء الدويلات الأرضية القديمة شعوبها المغلوبين:

"ومع ذلك كنت الوحيد من بين كامل ضباط جيشنا الغازي لهذا الكوكب الذي نجح في تركيع تلك المستوطنة، لم تنجح قواتي في اقتحام هذه البوابة فقط بل دخلتها من بوابتها الرئيسة دون أن نضطر إلى إهدار حزمة أشعة واحدة!"

لم أفاجأ لكلامه المغرق في الأنانية هذا، فأنا أعرف عمي "تأبط شراً" جيداً، لكن لأنني أردت أن أتأكد من أن ما يقوله هو نتيجة للشراب لا الزمن سألته بأدب جم:

"أليس في كلامك شيء من المبالغة يا عمي؟"

"حسناً خُذ هذه أيضاً: لم نستعمل أسلحتنا إلا في اشتباك قصير ضعيف مع حرس البوابة بعد ولوجنا المباغت لها، وحتى ذلك الاشتباك القصير لم يُسْفِر إلا عن بعض قتلى من حماة المستوطنة، فبرأيك كيف نجحت في ذلك؟"

هنا لم أتمالك نفسي، أحسست بضرورة تنبيهه إلى أن يعود إلى صوابه فقلت له مبتسماً:

"أيعقل هذا؟ هل أفرطت في الشراب يا عمي أم هي دعابة؟"

"هيا، حاول أن تفكر قليلاً، سأساعدك، لم يُخْدَش أيٌ من رجالي ولو خدش بسيط، وبعد دقائق من اقتحامنا لتلك المستوطنة وجدنا قادتها مكبلين تحت قدمي، هل تصدق أن هؤلاء الأحفاد الذين ورثوا المقاومة جسداً وعقلاً صاروا بعد بعض دقائق مكبلين أمامي؟ أعترف لك أنه نظراً لشجاعتهم لم يتم تنفيذ أمر الموت فيهم واكتفينا بسجنهم في المستوطنة الجدباء المجاورة، لكن أيمكن أن تستوعب كيف تمكنت سرية واحدة من أن تنجز كل هذه الإنجازات؟"

حسناً قلت في نفسي، لم لا؟ إن التاريخ العسكري البشري متخم باللا منطق، فلم لا يكون هذا السلاح المزعوم أحدها؟ لذلك أطرقت بجدية أفكر في الأمر لعلي أجد إجابة، وبعد لحظات قلت له:

"الحق أن كل هذا غير معقول، إلا إذا كنتم قد حصلتم على سلاح سري جديد مكّنكم مثلاً من كسر هذه الجدران؟ أم هي مجموعة أسلحة؟"

"بل استعملت سلاحاً واحداً فقط، وهو أقدم الأسلحة، سلاح قديم قِدَم التاريخ البشري الملطخ بالدماء!"

"أتقصد أنك استعملت مسدسات وبنادق طلقات؟ هل تسخر مني؟ منذ قليل قلت لي قبة من أقوى المعادن وغلاف طاقة إلى غير ذلك، ثم تقول لي الآن إنك استعملت سلاح قديم؟"

"إنني جاد تماماً في كل ما قلت، فقط فكر قليلاً، حسناً سأساعدك أكثر، لقد دخلت ورجالي بوابة المستوطنة بعد أن فُتِحت من الداخل وبشكل عادي تماماً، هيا، حتى الطفل يمكنه أن يُسمي الخطة الآن!!"

لم أتمالك نفسي هنا من أن أتمم بيني وبين نفسي قائلاً: (طفل؟ هذا إذا ولد شيخاً في المائة وكان في دهائك!)، أَحَسَّ بعجزي عن الإجابة، فنظر لي ملياً ثم قال باسماً وهو يهز كلتا يديه أمامه بعد أن لمس إبهام كل منهما طرف سبابتها ووسطيها المضمومين:

"يا بني لقد استعملت سلاحاً لا يُكَلِّف إلا قيمة مالية حقيرة، سلاح بالرغم من دناءته إلا أنه نجح دوماً في قتل أعظم القادة وأشجعهم على مر التاريخ البشري الدموي، ألم تعرفه بعد؟"

في الواقع أعجبتني الحكاية فعلاً فصرت أُقَلِّب فكري بجدية محاولاً أن أجد إجابة، لكن لأنني أردت أن أنقل له حيرتي تجاه المتناقضات التي يطرحها أمامي قلت له:

"أفهم ما تقصد، لكن أن تقول لي سلاح قديم وفي مواجهة هذه القلعة المحصنة، فهذا ما لا أستطيع الربط بينهما ، أتقصد سلاح قديم في تاريخ أهل ذلك الكوكب؟"

"وهل هناك حضارة تفوق حضارتنا في وسائل القتل والإبادة والتلويث؟ حينما أقول لك قديم فإنني أعني قديمنا نحن البشر، فلماذا تريد نزع هذا الشرف منا؟ الحق أنني محبط قليلاً يا بني، فمع كل التقدير الذي حصلت عليه من قادتي إلا أنهم رفضوا تنفيذ مقترح صغير لي، فقد أردت إنشاء نصب تاريخي يخلد هذا السلاح القديم، الذي سيكون كذلك وسيلة تُبين لباقي الأمم أن حتى أسلحتنا القديمة

فعالة جداً في حسم أي صراع لصالحنا، هيا ألم تعرف سلاحي بعد؟ أهكذا تستسلم سريعاً؟ أنت لست أرضي أصيل، أين ذلك الإبداع في القتل والإبادة والتلويث الذي تميَّز به أجدادنا وجداتنا طوال التاريخ؟"

لكنني عجزت فعلاً عن الإجابة بالرغم من محاولتي في ذلك، ولأنه شعر بأنه قد يفقد هذا المساء جليساً نادراً من أولئك الذين يستطيع أن يتلذذ أمامهم بالظهور كبطل أسطوري أسرع يقول:

"حسناً سأبسط لك المسألة بشكل أكبر، فبالرغم من أن خطتي تبدو للوهلة الأولى معقدة للغاية إلا أنها إضافة إلى عتاقتها هي في غاية البساطة، أساسها هو نجاحي في فتح بوابة المستوطنة سراً بالطريقة الاعتيادية التي تفتح بها بلا أي قوة، بل إنها فتحت بهدوء وبطء شديدين"

إلى هنا شعرت بعجزي التام في أن أصل إلى أي إجابة، في ذات الوقت تملكتني رغبة شديدة في أن أثري خبرتي المتواضعة بالتعرف على هذا الحل العبقري. إذا كان بالفعل حلاً عبقرياً لا إرهاصات عجوز ثمِل. لذا قلت له متلهفاً:

"حسناً يا عمي، أعترف لك إنني فشلت، وإنك تجدني الآن شغوفاً لحد الموت في أن أعرف هذا السلاح الفَتَّاك الذي استخدمته"

هنا قهقه منتشياً بصوت عال لمدة طويلة بينما كانت يده اليسرى ترفع كأسه عالياً، وبعد أن أرهقته موجة القهقهة الطويلة التي أطلقها لحد اللهاث أخذ شهيقاً عميقاً ثم قال لي:

"اسمع يا بني، صحيح هو سلاح فتَّاك لكن أتعلم أنه جاءني طواعية؟! الحق أعترف لك: لم أطلبه، لم أبحث عنه، وإنما جاءني

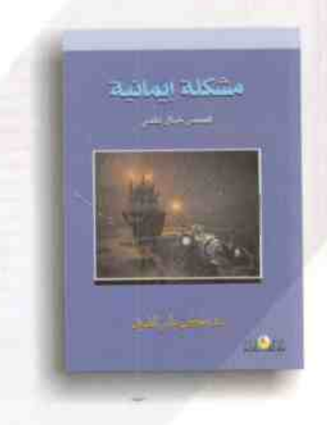
لوحده ووجدت نفسي فجأة بإمكاني استغلاله مقابل ثمن زهيد مُثير للحقارة! ألم تعرفه بعد؟ حسناً سأريحك الآن"

أفرغ في جوفه ما بقي من شراب كأسه في جرعة واحدة ثم وضعه على المنضدة وانضمت يده اليمنى إلى اليسرى في الإمساك بقاعدته، أخذ شهيقاً عميقاً، و بينما كانت عينيه تُحَدِّقان بعيداً عن المكان قال:

"في يوم كنت فيه قلقاً جالساً لوحدي في مكتبي دخل عليَّ مدير مكتبي يقول لي إن أحد سكان المستوطنة قادماً سراً منها يود مقابلتي على عجل، لم تستغرق جلستي معه أكثر من 20 دقيقة أرضية، تصوَّر؟ 20 دقيقة أنهت حرباً استمرت 200 سنة أرضية! لقد وجدت نفسي فجأة أمام أعتى الأسلحة التي استخدمتها البشرية بنجاح تام في كل صراعاتها، لكنني لم أكن أتصور أنه سينجح حتى في ذلك الكوكب النائي ...

ألم تعرفه بعد يا حضرة المُقَدَّم؟ ... ما بك؟ ... إنه ... إنه سلاح الخيانة يا بني!!"

حسن يوسف الحمويشي



▪ يقدم مجلس الثقافة العام للقارىء الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

